روايات عبير

الحائرة

Françoise RAWLING

N° 654

روايات عبير

عادت "سابين" المندوبة الخاصة لإحدى الصحف الكبرى إلى "تونس" التي ترعرعت فيها منذ طفولتها.

لكن ها هو "چوليان دي كروازو" يتواجد أمامها. هذا الشاب الذي هربت منه منذ عامين، وكانت الضغينة بينهما تبلغ أقصى حد لها. لذلك آثرت الفتاة التعمق بمفردها في الصحاري الجنوبية.

هل مازال قلب "چوليان" عامرا بالحب حتى أنه لحق بها في الواحة الموحشة المشتعلة.. حيث كانت في انتظارهما مواجهة مؤلمة مع تصاريف القدر؟

ثمن النسخة

لبنان	٢٥٠٠ ل.	قطر	٨ ريال
سوريا	٧٥ ل.	مسقط	٧٥٠ بيسة
الأردن	١ دينار	مصر	١٠ جنيه
السعودية	٨ ريال	المغرب	20 درهم
الكويت	٧٥٠ فلس	ليبيا	١ دينار
الإمارات	٨ دراهم	تونس	2.5 دينار
البحرين	٧٥٠ فلس	اليمن	٢٥٠ ريال
U.K.	2£		

ISBN 9953-443-82-3
9789953443829

المقدمة

في جو من التوتر العاطفي، ووسط شائعات سياسية تملأ البلد الذي أوفدت إليه الصحفية الشابة، مع ما يمليه عليها ضميرها من أجل الأمانة والتفاني في العمل، ومن أجل مجد وكرامة صاحبة الجلالة الصحافة، دارت أحداث هذه الرواية في أسلوب شائق جذاب.

تصفحها- عزيزي القارئ- واستمتع بها.

WWW.REWITY.COM
مرمورية

شخصيات الرواية

- "سابين ريڤيير" : مندوبة صحفية لصحيفة كبيرة.
- "چان ديڤيڤييه" : "ملحق بالسفارة.
- "چوليان دي كروازو" : صحفي.
- "ليلى شكري" : إخصائية اجتماعية.
- "چورچ ويندو" : صحفي.
- السيدة "دي پويمورين".
- "فيصل".
- "فلورانس".
- "بيرتراند" : زوج "فلورانس".
- "ماتيلدا" : العمة التي تبنت "سابين".

الفصل الأول

وها هي "سابين ريڤيير" قد وصلت!

استقبلت المندوبة الخاصة لإحدى الصحف الشهيرة الكبرى وسط همسات الحاضرين الذين قاموا بتحيتها. كانوا لا يتوقعونها، لا بمثل هذا الشباب ولا بمثل هذا الجمال أيضا.

اصطحبها الملحق بالسفارة المسؤول عن الصحافة- وهو شاب أشقر، أنيق، له سمات الجدية- في جولة لمكاتب السفارة الفرنسية في "تونس". تقدمت الفتاة في رضا لتحية مضيفيها. وكان الفستان الذي ترتديه باللونين الأحمر والأبيض يزيد من نضارتها، وتحت خصلات شعرها القصير الأسود، كانت نظراتها الجادة تتعارض مع جمال وجهها البيضاوي الناعم وفمها الممتلئ.

بادرتها السفيرة، وهي سيدة قصيرة القامة شقراء مرنة وطريفة بقولها:

- لقد قرأنا تحقيقاتك الصحفية الأخيرة عن المرأة المصرية. إنها سلسلة شائقة!

أجابت الفتاة في لطف:

- أشكركم. في الواقع إن تحدثي باللغة العربية، سهل لي اتصالاتي بقدر كبير.

قالت السفيرة مؤكدة:

- كما أنك موهوبة. هذا بالإضافة إلى أن السيد "چان ديڤيڤييه" يثق بك.

لم يسبق لـ"سابين" الاستماع إلى مثل هذا النوع من تعليق المتملقين على عملها. كانت- منذ عامين- قد كلفت في الجريدة بكل المهام الصعبة. أما بالنسبة للتحقيق الصحفي فلقد حققته بالمصادفة؛ لأن المراسلين المعتادين لم يكونوا حينئذ مستعدين لهذا العمل، وكان قد شاء الحظ أن يحول مهمة ثانوية إلى نجاح أكيد: ومنذ ذلك الحين، كان "چان ديڤيڤييه" يسمح لها بالتوقيع- في باب "الشرق الأوسط" من

الجريدة- على مقالات سياسية؛ لذلك حصلت الفتاة على هيبة جديدة تعتبر نوعا من التناقض مع ماضيها. بالإجماع. كان نجاحها قد بدأ عندما تمكنت من التوقيع تحت الاسم المستعار "سابين ريفيير"، وبذلك تمكنت من تغيير إقامتها وهويتها.

وهكذا كانوا يقدمون لها المدعوين؛ لأن- في هذه الفترة المتأزمة- الدبلوماسيين كانوا يفدون إلى "تونس" لتبادل معلوماتهم. إذ إنه كانت هناك فكرة منذ أيام عن احتمال محاولة بعض العناصر الليبية الحصول على السلطة. فكان هذا الوضع الذي يهدد نظام البلد يفسر إلى حد كبير وصول "سابين" قبل الموعد بساعتين إلى مطار "قرطاج" بـ"تونس".

وكان "جان ديفيفييه" قبل رحيل "سابين"، قد قال لها:

- لست أدري إذا كنت على حق بإرسالي إياك إلى هناك. حقا.. إنك جديرة بالقيام بهذا العمل، لكن بالنسبة لفتاة..!

وكانت "سابين" قد أجابت حينئذ في ثبات:

- أنا صحفية يا سيدي، وأرغب في تعلم مهنتي في كل المجالات وعلى كل الجبهات!

وأجاب ضاحكا:

- ليتنا لا نبالغ! "تونس" ليست جبهة! إنها بلد مرحب، هادئ. أتذكر أنك تعرفينها. أليس كذلك؟

- لقد ولدت هناك في الواقع، وتعلمت اللغة العربية فيها.

كان وجه "سابين" قد تعتم وهي تجيبه. إنها أحبت هذا البلد لا شك في ذلك لكنها- منذ عامين- كانت تعمل على تأجيل لحظة العودة إليه للقيام بأبحاث مهمة لا علاقة لها بالسياسة، لكنها لم تجرؤ- في هذه الفترة- على الإفصاح لرئيسها عن طبيعة هذا البحث. كان عليها أن تكشف عن أشياء عديدة أخرى، بينما "جان ديفيفييه" يعرف فقط الآنسة "سابين ريفيير".

ها هي الآن جالسة على أريكة في الصالون الأوسط وسط أضواء وباقات من الورد، ومستعدة للعمل، ومحاطة بالزوار.

كانوا- خاصة الرجال - يتزاحمون حولها، ليس من أجل جمالها فقط، إنما لأن طبيعة عملها تضعها في هذا الوسط من الدبلوماسيين الشغوفين بالسياسة. أما هي فكانت تراقب من بعيد- بشيء من الحنين إلى الوطن- مجموعات السيدات المجتمعات في الصالونات الثلاثة الأخرى.

كانت فساتينهن وتسريحات الشعر المدروسة توحي بأنهن كرسن ساعات لكي تبدو كل منهن على هذا النحو من التألق. لكن "سابين"- منذ أن أصبحت صحفية- كانت قد قصت شعرها الطويل، واعتادت ارتداء الملابس المناسبة. أما عن فساتين السهرة، فكانت لا تخرج من الحقائب إلا عندما تضطر إلى حضور إحدى الحفلات. غير أنها لم تكن غير مبالية بالحفاظ على نعومة بشرتها بل كانت تراعي ذلك، وكذلك كانت تعمل دائما على طلاء أظافرها. لكن ذلك لم يدم طويلا، وكل ما هو باعث للسعادة لم يدم طويلا. ها هي الآن قد أصبحت الآنسة "سابين ريفيير". فتاة قطعت كل صلتها بماضيها.

حينئذ صاحت إحدى السيدات الجميلات:

- سوف يعملون على إرهاقك يا صديقتي المسكينة! تعالي بالقرب منا لكي تستريحي وتستفيدي بالبوفيه!

أجابت "سابين" وهي تنهض:

بكل سرور. إننا في الواقع ثرثارات لا نملّ أبدا، وليس في إمكاننا لا تجنب ولا إثارة الأحداث.

وضعت إحداهن يدها الرقيقة على ذراع "سابين" وسألتها:

- ما رأيك في باقاتي لقد كلفتني بها السفيرة، لأني غير متزوجة وهي مشغولة جدا.

أجابت "سابين في صدق:

- إنها رائعة. لكن هذا لابد أن يكون قد جنى على بعض أغصان أشجار اللوز.

- آه.. لا! إني لم أنتزع كمية كبيرة إلى هذا الحد!

وكانت الزهور البيضاء موضوعة في زهريات من الكريستال، شامخة

على أغصانها. صدمت "سابين" عندما لمحتها عند وصولها. غير أنها كانت لا تستطيع الإفصاح لمحدثتها اللطيفة عن دوافع تأثرها أمام منظر هذه الأغصان الرقيقة. لقد عادت كل طفولتها إلى ذاكرتها. إذ كانت هناك شجرتا لوز في حديقة سيدي "بوسيد" تظللان منزلهم. وكانت والدتها السيدة "دي بويمورين" هي التي تعلن- في كل عام- وهي تفتح نافذتها: "لقد أزهرت أشجار اللوز.. لقد اقترب الربيع".

كما كان- في كل عام- شهر يناير (كانون الثاني) في هذا البلد- بلد الهدوء والنور- هو بدء فصل الربيع، في حين أن أوربا- من الجانب الآخر من البحر- كانت في هذه الفترة مازالت فريسة للضباب والأمطار الغزيرة والثلوج.

وكان ذلك يشكل جزءا من حياتها السعيدة. لكن حدث منذ عامين- ما تسبب في أن معايير الأمور قد تغيرت. لحسن الحظ ليس من هو على علم هنا بهذا الانقلاب. الأمر الذي كان يبعث بالطمأنينة إلى نفسها منذ وصولها.

- يا له من حظ! القيام بإتمام مهنة حقيقية، مهنة الرجال!

- هكذا صاحت السفيرة- ومع ذلك- يا عزيزتي هانت تمثلين دورك بمزيد من الأنوثة! كنت أتخيلك سيدة قد بلغت من العمر ما يجعلها موقرة، وقد تكون قبيحة الشكل إلى حد ما، هانت سحرتني عندما رأيتك!

وكانت في هذه الأثناء تتناول قطعة من بسكويت الـ"سابليه". وكانت عيناها الزرقاوان تلمعان. كما أن بدانتها، كانت- على ما يبدو- تزيد من طابعها المرح.

أضافت إخصائية فن الزهور ذات الشعر الكستنائي الذي كان على شكل شنيون مزدان بالعديد من الورد:

- حقا.. إن الآنسة "دي ريفيير" تستحق كل تقدير. كم تمنيت أن أصبح كاتبة تحقيقات، غير أني عندما تقابلت مع "سيرج" تلى ذلك- من البديهي- الزواج.

أيدت "سابين" كلام السيدة الشابة في شيء من المرارة، حرصت على

إخفائها بلهجتها العادية:

- حقا من الصعب القيام بهذا النشاط إذا رغبت من تقوم به في تكوين أسرة.

- إنه زوجي الذي لم يوافق قط! إنه غيور إلى حد أنه يجعلني أحكي له أحلامي!

هكذا أضافت ضاحكة. ثم تجمدت فجأة وعادت إلى جديتها، واضعة إصبعا على فمها همست:

- هس! هس! أعتقد أنه وصل:

في نفس اللحظة، كانت هناك حركة بين مدعوي الصالون الأول. سألتها سيدة أخرى:

- أتعتقدين حقا أنه هو؟

- نعم! ها هو مع السفير بلا شك. إني لا أراه جيدا عن بعد، هل هو بمثل هذا الجمال؟

صاحت السمراء الجميلة:

- رائع!

قالت هذا، وقد بدت على وجهها المستدير الطفولي الذي تعلوه المساحيق، لمحة سرور ورغبة.

وقد سرت "سابين" لحماس أولئك السيدات. واصلت انتقالها من صالون إلى آخر وسط سحابة من العطور. قدنها إلى الصالون الأول حيث كان لفيف من الرجال والنساء مجتمعين حول الوافد الجديد.

"إنهن في غاية التأثر"- هكذا فكرت دهشة- ومع ذلك، قد تكون حياتهن شائقة، هذا إن لم ينحصرن في شائعات السفارات. من هو هذا المدعي الجمال حتى يثيرهن إلى هذا الحد؟".

وكانت "سابين"- وهي ممسكة بكأس- تبتسم في مودة إلى موكبها، لكن ذهنها كان بعيدا. وقد زاد من حالة التوتر التي كانت تعانيها هذا الهرج، وهو مزيج من الأحاديث المختلطة بالضحكات.

وفجأة شق السفير لنفسه طريقا بين المجموعة التي تحيط به واتجه نحو

"سابين" وبرفقته الوافد الجديد.

– لدينا هنا– يا صديقي العزيز– مدعوة أخرى متميزة حضرت لنفس الغرض؛ لذلك أقدم لك "سابين ريفيير". ها هو السيد "جوليان دي كروازو" يا آنسة. لقد وصل من "بيروت".

كان الشاب الواقف أمامها نحيفا وأنيقا. وكانت لعينيه الواسعتين نظرة متربصة أشبه بنظرة الصياد. أخذ يفحص الصحفية بنظراته دون أن يرمش:

– هل أجدت السمع؟ إنك الآنسة "سابين ريفيير"؟ لو كنت في مكان "جان ديفيفييه" ما اخترتك من أجل هذا التحقيق– هكذا أبدى ملاحظته بلهجة ساخرة– لكن ربما كانت له آراؤه!

– لقد غفلت عن أنها شخصية متميزة، ملمة تماما بالمشاكل التونسية، ولقد أثبتت لنا ذلك حاليا، وهذا على الرغم من رقتها الواضحة وشبابها وجمالها.

– إن "ديفيفييه" صحفي متمرن، يجيد استخدام كل الأسلحة، للحصول على المعلومات اللازمة. إنه مخبر بلا أدنى شك، هكذا قهقه "جوليان دي كروازو".

قال السفير وقد بدا عليه الحرج:

– إن علاقتك بالصحافة ليست دائما مشرقة، إننا على علم بذلك، لكن في هذا المساء..

وكانت "سابين" – من جانبها– صامتة، وقد أثلجها هذا اللقاء غير المتوقع مع الشاب الذي يفحصها، كان ساخرا، ومثيرا. كانت ترى في عينيه نظرات الحقد والازدراء.

انتفضت "سابين" ابتسمت بطريقة آلية إلى الدبلوماسي الذي أتى للتدخل، لكنها لم تتمكن من النطق بكلمة واحدة. لقد ارتبكت عندما ظهر "جوليان". كثيرا ما توقعت أن المواجهة قد تتم ذات يوم وأنهما سيتقابلان، كما علمت في "بيروت"، لكنها لم تتوقع قط أنها ستلتقي به هنا.

بعد قليل أقبلت السيدة السمراء– تلك التي التقت بها في مرح

بالقرب من البوفيه– نحو "جوليان" في حماس واضح وفي الحال تحولت نظرة الصياد، لقد بدت على ملامحه وداعة غير متوقعة لا تقاوم. شعرت "سابين" بأن ساقيها تخوران بينما صاح الشاب:

– "إيما"! عزيزتي "إيما".. إنك إذن في "تونس"! لكن هل هذا الاسم جديد؟

– لقد وصلنا منذ شهر ليس إلا. و"سيرج" متغيب منذ ثلاثة أيام. إنه مرافق لحقيبة دبلوماسية. يا لسروري بلقائك!

وكان "جوليان دي كروازو" قد تناول يدي "إيما" بين يديه، وأمام ازدراء المدعوين الآخرين– أخذ الفتاة جانبا. حينئذ أشارت السفيرة في لباقة:

– إنهما صديقان، كانا قد تعرفا في "بيروت" منذ عامين!

ثم أعلن السفير حيث كان ممسكا بذراع رجل في الخمسين من عمره، قصير القامة ومستدير الوجه، وذي شارب كستنائي كثيف:

– الآنسة "دي ريفيير" المكلفة بالأعمال البريطانية تود أن تتقدم لك.

تمتمت "سابين" وكانت تقاوم حتى لا يغشى عليها وسط الصالون.

– الـ... المكلفة بالأعمال؟

– صديقي "جورج ويندو". إنه معجب بك منذ وصولك. لقد أشرت له بأنه ليس بمفرده!

تمتم "ويندو" وهو ينحني للتحية:

– تشرفنا أيتها الصديقة الظريفة. يسعدني أن يكون لي معك لقاء. إني على معرفة جيدة بمديرك "جان ديفيفييه"، ولا أتواجد قط في "باريس" دون أن نتناول معا الغداء عند "ماتييه"...

تمالكت "سابين" نفسها وأجابت بطريقة طبيعية على الرغم من ارتباكها:

– هذا ما يثبت أنه صديق حقيقي. إن السيد "ديفيفييه" يحرص دائما على حسن المعاملة مع من يوافونه بالمعلومات بجدية.

وعلى الرغم من ذلك كانت "سابين" غير قادرة على تحويل نظرها عن الثنائي المكون من "جوليان" و"إيما" لفترة طويلة، كان كلاهما

يضحكان في مرح من القلب، وهما جالسان على أريكة من الجلد. وعلى المائدة الموضوعة أمامهما كانت باقة أغصان شجرة اللوز لا تخفي تماما يديهما المتقاربتين.

تابع "جورج ويندو" نظراتها. مال على كتفها وأبدى ملاحظته:

– المسكين "سيرج"! كان لا ينبغي أن يرافق الحقيبة! ها هو في طريقه إلى فقد زوجته!

أصبحت "سابين" مستقرة تماما. لقد بدت على ملامحها مظاهر الدهشة الساذجة.

قالت:

– إنهما صديقان حقا. أليس كذلك؟ إن السيد المكلف بالاعمال نادر في مجتمعكم الصغير!

وفي نفس الوقت التي تمزح فيه، كانت "سابين" في ضيقها، تكشف عن غيرتها وألمها بشأن "جوليان". كانت تعلم جيدا أنه من المستحيل أن تكون صديقة هذا الرجل، وهي أيضا على دراية بأن أي فتاة لم تصل إلى ذلك. لقد وقعن كلهن في السحر الذي كان يجيد استخدامه لكن هل كان يلعب؟ ألا يكفيه أن يظهر؟

– لن أتمكن من البقاء أكثر من ذلك يا سيد "ويندو"، لكن ربما تتاح لنا فرصة لقاء آخر أثناء إقامتنا.

حينئذ تدخل الملحق الصحفي، وهو بالتأكيد دائم اليقظة:

– ساعمل على مرافقتك عندما ترغب في ذلك، لكني أعتقد أن "كروازو" يرغب في مبادلتك الحديث، من جانب آخر لقد اعدت السفيرة حفلا راقصا في الحجرة الزجاجية.

استطردت "سابين":

– لا أعتقد أن السيد "دي كروازو" يولي مثل هذا الاهتمام لعمل الصحفيين.

قال السيد "ويندو":

– إنه قاس، لكن عندما يختص الأمر بشخصية بمثل هذا السحر.

أيده الدبلوماسي الفرنسي.

– في الواقع، إنه لا يغفل عن السيدات الجميلات، طالما جعلن منه "دون جوان"، غير أني فكرت في أن ذلك قد يكون مجرد سمعة.

سألته "سابين" في خفة:

– حقا؟

– نعم. يبدو أن أسلوبه في الإغراء لا يتجاوز أبدا الحوارات الاجتماعية.. يقال أيضا إنه قد عانى مشاكل عاطفية فيما مضى. باختصار لا تُعرف عنه أي ارتباطات خاصة منذ أن وصل إلى "بيروت".

ثم أكد "ويندو":

– إن الـ"دون جوانات" عديمو القدرة دائما. إنهم يقبلون كل ما يقدم لهم من مشروبات، لكنهم لا يعرفون تفريغ الكأس!

ها هو الرجل الصغير قد شرب– وهو يضحك– كأس الشراب بصحبة الشاب الفرنسي الذي سر للمداعبة.

لم تكن "سابين" في وضع يسمح لها بتقدير مدى الارتياح البادي على الرجلين، وخاصة ارتيابهما في صفات "جوليان دي كروازو". على الرغم من مرور عامين من الوحدة لم تغفل "سابين" عن شيء، فهي تتذكر كل شيء وها هو قلبها يخفق كسابق عهدها عندما رأته في الصالون. إن الذكريات تلاحقها، محددة، مؤلمة، ملحة. متى ستحصل على الشفاء؟ وهل كانت ترغب فيه؟

أما "إيما" فكانت تبدو مسرورة، وكانت عيناها تلمعان وهي تتسامر مع محدثها الذي لا يبعد نظره عنها.

إنه يحب الفتيات الصغيرات– هكذا فكرت "سابين"– إنه يقوم بدور الآباء الساحرين! لكني أبدو الآن مسنة؛ لأن العامين الأخيرين غيّرا مني. لقد أصبحت إنسانة أخرى".

لكن من كانت هي في الحقيقة؟ وعندما تتأكد من ذلك هل ستهدأ أم أنها فقدت نهائيا؟

وفجأة اقترح مسؤول الصحافة:

– إذا كنت متعبة ففي إمكاني اصطحابك إلى المنزل.

هل ضيقها كان واضحا إلى هذا الحد؟ وفي هذه الحالة قد يكون "جوليان" مسيطرا عليها؟ يجب ألا تمنحه هذه الفرصة لنصر جديد، ومهما كلفها الأمر يجب أن تقاوم. أجابت مؤكدة:

– بالعكس.. إني أشعر بتحسن كبير. لقد شعرت الآن بلحظة تعب. لا شك أنه بسبب الطائرة. هيا بنا نجلس بالقرب من الباقة الكبيرة.

أردف "ويندو":

– ألا نتسبب بذلك في إزعاج الآخرين؟

أجابت "سابين" في حماس:

– لا، هناك أريكة أخرى. سنتمكن من تبادل الحديث بارتياح.

فما كان من الرجلين– وقد بدا عليهما الابتهاج– إلا أن تبعا الصحفية الجميلة وأثناء ذهابهم إلى المائدة ذات الباقة الكبيرة مروا بالقرب من "إيما" و"جوليان" اللذين على ما يبدو لم يلتفتا إلى وجودهم لأنهما كانا يواصلان الكلام والضحك.

غير أن "سابين تعثرت عندما مرت بالقرب من الثنائي، إذ تأثرت لاقترابهم من "جوليان"، لكنها تمالكت نفسها، وجلست بكل ارتياح في المقعد ذي الوسائد الجلدية، وكانت ترتدي فستانها الأبيض الجميل ذا الورد الأحمر.

جلس الملحق الصحفي بالقرب منها بينما البريطاني أحضر مقعدا ذا مسندين لكي يجلس عليه في مواجهتهما.

أطالا الحديث. وكانت "سابين" تجيب جيدا عن الأسئلة مثل جهاز معد لذلك. لكنها لم تلفت نظر "جوليان" ولا مرة لأن "إيما" كانت تبدو جميلة، مرغوبة بما لها من مرح، وما يضفيه عليها فستانها الأسود، وكانت تبدو مشرقة.

"إن ما هو مثير عندك هو هذا المزيج من الشباب، وهذا الفستان الذي يجعلك سيدة". كانت ذكرى هذه الكلمات تؤلمها. كانت "سابين" في تلك الليلة تبلغ من العمر اثنين وعشرين عاما، أما هو فقد كان في

الخامسة والثلاثين. غير أن عاصفة فجائية عملت على اكتساح هذه الفترة الرائعة. وحاليا إنها "إيما" التي تتمتع بهذا التناقض المربك في فستانها الأسود الضيق الذي لسيدة ولكن ترتديه طفلة. ترى هل لو كان "جوليان" قد تقابل مع "سابين" بعيدا عن الصالون، هل كان سيعرفها؟ لقد تركت "سابين" من خلفها الوحدة والدموع. أما هو، فكان بالعكس محتفظا بمظهر الفارس الشجاع، الشاب القاسي والمسيطر، من اختبرت أيضا رقته وحساسيته. كم تمنت باشتياق أن تجده ذات يوم. لكن التفاهم لن يسود بينهما أبدا. وأثناء ما كانت "سابين" غارقة في أحزانها، شعرت بلمسة الدبلوماسي الفرنسي لذراعها العارية.

من الذي فكر في بث هذه الموسيقى الهادئة في الصالونات؟

– أتقبلين أن ترقصي؟

قال هذا وهو يساعدها على أن تنهض، لكي تلحق معه بأزواج الراقصين على حلقة الرقص المعدة لهذا الغرض في الغرفة الزجاجية، ودون أن تنظر إليهما، شعرت بأن "جوليان" و"إيما" نهضا بدورهما. لقد وصلوا جميعا معا على الحلقة.

للمرة الأولى منذ مشادتهما القصيرة تقابلت عيونهما. "جوليان" خفض جفنيه حتى يزدريها أكثر، وضعت "سابين" وجنتها في وضع يدل على التحدي على كتف من يرقص معها.

دامت الرقصة حوالي ربع الساعة، وكان "جوليان" يلاطف "إيما" ويضمها إليه، وهو يهمس لها في أذنها:

– لابد أنك سمعت هذه العبارة في عشرات من العواصم، لكن منذ أن توجهت لأخذك من المطار وأنا لم أعد أعرف نفسي.

"هانا ثائر ضد نفسي منذ أن رأيتك". إن الصوت الذي كانت تسمعه هو صوت "جوليان" الذي كانت تعرفه فيما مضى، والذي قابلته قبل ذلك بثلاث سنوات.

ولما انتهت الموسيقى، كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل. قال الدبلوماسي الشاب الذي كان يهدف إلى الحصول على الكثير من هذه

الرحلة:

– سوف أرافقك.

– إذن هيا نحيي ضيوفنا.

وكان السفير قد توقف بالقرب من "جوليان" و"إيما" وسد الطريق عليهما. تقدمت "سابين" في غير تردد:

– شكرا سيدي السفير، لقد قضيت سهرة طيبة.

ثم رأت "جوليان" يختفي وبرفقته "إيما". لا شك في أنه كان يرغب في تجنب أن تلمح عليه أقل مودة نحوها.

تقدما الواحد بجوار الآخر خلال الصالونات، وكانت الصحفية ورفيقها يقومان بتحية المدعوين بسرعة. وكانت بعد ذلك، حركة التقديم.

كان كل ذلك يبدو شائقا للفتاة. غير أنه كان ينبغي أن تتمالك نفسها بأكثر سرعة وأن تتصل هاتفيا للإدلاء بمقالها، وأن تستعد للقيام في اليوم التالي بمهمتها الأخرى في أكثر سرية وأكثر حيوية طالما تخص مستقبلها.

– تشرفنا... بالتأكيد... مساء الخير يا سيدي... نعم يا سيدتي.

ثم وضع رفيقها على كتفيها العاريتين معطفا خفيفا، وأخذ ذراعها لنزول السلم المؤدي إلى الحديقة. ثم سمع صوت باب سيارة يغلق عليها. اتخذا طريقا جيد الإضاءة أوصلهما خلال عشرين دقيقة من شاطئ "جامارت" إلى "تونس".

– اطمئني، لن أستغل تعبك للحصول على أسرار– هكذا أكد الملحق الصحفي– في هذه الأثناء سحرتني. وكان هذا غير متوقع.

أردفت "سابين" ضاحكة:

– ستتكشف لنا الأمور غدا. إن السهرات التونسية ممتعة، وهي ملهمة أيضا.

– ومع ذلك أجد نفسي واثقا.

– لا يمكنك أن تكون واثقا. من يدري قد أكون فتاة شرسة،

جاسوسة خطيرة، مغامرة.

– ملاك، ربة الفن!

– صحفية متعطشة إلى المعلومات، باحثة لا تمل.

وصل الشابان إلى ملتقى الطرق المضاء في "بيلفيدير"، وهما يضحكان في صدق. وأثناء اتخاذهما دوران شارع "محمد الخامس" حاذتهما سيارة سوداء أرغمت الدبلوماسي على القيام بحركة خطيرة. صاح:

– سخيف!

قالت "سابين" مازحة:

– لابد أن يكون قد قضى سهرة ملهمة.

– انظري، ها هو يهدئ الآن! يا له من غبي!

وكانت السيارة السوداء– في الواقع– قد ركنت على اليمين، تاركة مجال المرور. لقد كانت سيارة مرسيدس من سيارات السلك الدبلوماسي.

– إنه "جوليان دي كروازو"! ماذا دهاه! لقد كان منذ قليل مع "إيما" عندما تركنا السفارة.

– ألا يقيم في قصر الضيافة؟

– لا، لقد حجز جناحا في "الهيلتون". إنه بالتأكيد رجل عجيب الأطوار. أعصابه من فولاذ!

قالت "سابين" وقد بدت عليها علامات اللامبالاة:

– وربما أنه لا يحب– خاصة– الكوارث والأخطار. انتبه!

مرة أخرى حفت المرسيدس بجناح سيارتهما الأيسر.

– ربما يكون ثملا؟

ولكي تقاوم الخوف الذي بدأ يتملكها، أردفت "سابين":

– ثمل بـ"إيما": قد يكون عنيفا إلى هذا الحد!

– وتمهل مرة أخرى، لقد أبطأ! إذا كان معتمدا عليّ للقيام برحلة في ضوء القمر فهو يخطئ. سأقول له غدا كلمتين.

– سيكون قد غفل عن كل شيء!

– سأذكّره.

ألقت نظرة إلى رفيقها مسرورة. كان أشقر، مرحا، ذا وجه نحيف، لا شك في أن كل الأسر الطيبة تتمناه. ترى هل يعجب الأمهات أم الفتيات؟

"بالأكشر إلى الأمهات" هكذا قررت عندما توقفت تحت رواق "الهيلتون". وفي الوقت ذاته توقفت السيارة الـ"مرسيدس" خلفهما بالضبط، مصدرة أزيزا من فراملها القوية.

كانت وقتئذ يد "سابين" في يد الملحق الصحفي الذي طبع عليها قبلة حارة. قالت:

– إلى الغد.

– أعلم ذلك جيدا. إنك ستقابلين السفير في الساعة العاشرة والنصف.

– لذلك يجب أن أختفي بسرعة.

وكانت "سابين" – في الواقع– غير مطمئنة لتصرفات "جوليان" المختلفة. كانت تخشى من رد فعل عنيف، قد تدفع ثمنه الدبلوماسية الشابة. كيف سيتصرف عندما تغادر السيارة؟ هل سيطلب تفسيرا لتصرفه هذا؟ لماذا يتعقبهما بمثل هذا الإصرار؟ كان من الممكن أيضا أن ينتقم.

– طاب مساؤك. ساهرب. لا تعاند، لقد قضينا سهرة طيبة!

وطبعت "سابين ريفيير" قبلة على وجنة الصهر النموذجي، ثم دون أن تنتظر أن يفتح لها باب السيارة انطلقت خارج السيارة التي انصرفت في الحال. قطعت الـ"مرسيدس" الطريق على الفتاة التي لم يكن أمامها سوى عدة أمتار تجتازها للوصول إلى الصالة المضاءة.

دارت حول السيارة المضاءة. وإذا بيد من حديد تمسك بذراعها. لقد نزل "جوليان".

– أنا لا أرغب في أن أراك في طريقي! ارحلي منذ الغد! ولن يجد محبوبك أي صعوبة في أن يحل مكانك لتغطية هذا التقرير الصحفي. وأنا واثق بذلك!

– إنك أنت الذي تتعقبني! عن نفسي.. أنا أقوم بواجبي!

هكذا استطردت الفتاة وقد شحبت من الغضب والمذلة.

– من جانب آخر.. إني معجبة بـ"جان ديفيفييه" ولا أسمح لك..

– يجب أن يكون محبوبك! إن بياناتك كانت ناقصة يا عزيزتي، كما أنهم لم يدربوك حتى تستخدمي جاذبيتك كطعم للدبلوماسيين للحصول على القليل من المعلومات!

– دعني.

– إنك تجهلين أن لي عليك حقوقا!

– حقوق لم تعمل على الحصول عليها!

– ولماذا كنت سأقوم بذلك؟ أنت التي كنت تتمنين الوحدة!

– إنها حقيقة. يجب أن أعود الآن، إذا احتجزتني أكثر من ذلك فسأنادي، سأطلب النجدة!

– ليس أمامك سوى عودة السائق، هذا الشاب الساحر، من هو ضحية اليوم. لا شك في أنه ذهب لكي يركن سيارته مسرورا لأن الاختيار وقع عليه لقضاء السهرة!

ثم تركها. كانت لا تزال تشعر بثقل يده على ذراعها. وقفا يتبادلان النظرات تحت الرواق. كان لـ"جوليان" وجه الأيام الرديئة، هذا الوجه الجاف، الشرس ذو التجاعيد الرأسية السميكة بين حاجبيه. ومع ذلك وقفت "سابين" جامدة، صامتة، وقد سحرت! عيناه بما لهما من إشراقة عند الفتاة وبحالهما من تأثير النداء.

– هيا، انصرفي! لابد أن يكون "ديفيفييه" في انتظارك بالقرب من التليفون! هنيئه من جانبي. إنك حقا مشرقة. لابد أنهم لم يكفوا عن ترديد هذه العبارة طوال السهرة. لا شك في أن "ديفيفييه" موهوب جدا. لم يسبق لي معرفته من هذه الزاوية الشائقة.

قالت "سابين" بصوت جاف:

– ومادمت ذاهبا للقاء "إيما"، أخبرها أني أرثي لحالها بوقوعها في شباكك!

وأسرعت إلى الصالة، أمسكت بالمفتاح المقدم إليها، ووجدت نفسها في المصعد الكبير ذي المرايا التي عكست لها صورتها. لاحظت–

مغمومة- أنها شاحبة ومنهارة. كانت ترتجف. ألن يكف "جوليان" عن جعلها تتألم؟ بل أسوأ من ذلك، اكتشفت "سابين" - في إذلال- أنها مازالت تحت الجاذبية التي سحرتها فيما مضى. لكن طالما فقدته بسبب خطئها، أما كان عليها أن تواصل وتواجه للنفس الأخير- وبمفردها- كل ما فرضه عليها قدرها؟

وعندما تواجدت "سابين" في حجرتها رتبت فستانها وحذاءها بعناية، وتوجهت إلى الحمام.

"سوف يفاجأ الملحق الصحفي عندما يراني صباح غد في السفارة- هكذا فكرت لكي تقاوم حالة الإحباط التي لحقت بها، وتحاول أيضا أن تستعيد مزاجها الحسن، مع ذلك لست في حالة يرثى لي فيها إلى هذا الحد!".

ها هي قد أفاقت بعد حصولها على الحمام الدافئ. وبعد ربع الساعة، كانت "سابين" في سريرها تحرر مقالها، وهي تضع مذكراتها على لوح خشبي صغير اعتادت أن تحمله معها في كل مكان، وعندما انتهت من إعداد الورقات الست التي وعدت بها "جان ديفيفييه" أملته.

ثم أعلنت موظفة السويتش بالجريدة بعد حصولها على المقال:

- السيد "ديفيفييه" يطلب منك أن تتصلي صباح غد في ساعة مبكرة لأنه خرج هذا المساء.

- سأنفذ ذلك يا آنسة. شكرا وطاب مساؤك!

أجاب صوت واضح محرر من الوهم:

- آه! بالنسبة لي هل تعلمين أني لن أستطيع أن أنام قبل عدة ساعات.

خفضت "سابين" السماعة وهي تبتسم، وقررت أن تطفئ النور في الحال. مكثت في الظلام لحظة تفكر في الموعد المحدد من "ليلى شكري" المعاونة الاجتماعية بمستشفى "شارل نيكول". هذه السيدة لا تعرفها من قبل، لكنها تعتبرها جزءا من حل مشاكلها. سوف تستقبلها في اليوم التالي في الساعة الثالثة والنصف.

وقبل أن تغرق في النعاس، أتتها فكرة عن هذا الشخص المسن، الذي كان يرتدي معطفا رماديا، وكان قد قرع بابها قبل ذلك بعامين في فترة بعد الظهر، رجل مسن ذو التجاعيد المبتسمة، والنظرة الصافية. كان قد دفع بـ"سابين" إلى الأسى ببضع كلمات. هذا الشخص "رسول القدر" كما كانت قد دعته لم يتصرف وقتئذ بشراسة. غير أن الخبر المؤسف جعل السعادة مستحيلة فجأة.

وها هو الحال أسوأ الآن. لقد علمت- يقينا- أنها فقدت "جوليان" عندما رأته ثانية. يا له من جنون أن تأمل في استعادته بعد هذه العاصفة! لقد أبعدها عن حياته في إحدى لحظات كبريائه. ومع ذلك- على الرغم من هذه الاحتمالات- كان ظهوره كافيا لإعادة العلاقات السحرية والرغبة والشهوة.

وإذا بتعب ساحق يسيطر عليها، بينما كانت تعمل على إبعاد هذه الصورة المربكة- للمرة الألف- التي لهذا المطارد.

الفصل الثاني

كانت "سابين" تلمح من الشرفة منظرا جميلا من الهضاب والخضرة يغمره ضوء هادئ. كانت الشمس قد بددت الضباب، وها هي الصحفية الشابة قد ارتدت ملابسها وصففت شعرها، وتتناول إفطارها.

عندما استيقظت ملأتها ذكرى لقائها بـ"جوليان" بالمرارة والحزن، لكنها قاومت؛ إذ كان عليها أن تتصرف هكذا، وكانت ترغب في الحصول على الشجاعة اللازمة لإنهاء أبحاثها. كما أنها- بفضل هذا التقرير الصحفي- سوف تحصل على الفرصة اللازمة لمعرفة- بصفة نهائية- ما إذا كان في إمكانها العودة إلى بيت الزوجية ذات يوم أم لا.

لقد ساعدتها هذه الضرورة على حبس دموعها وطرد الأحاسيس الملحة بالندم. لكن "جوليان" - الذي كان مستندا إلى منصبه اللامع وثروته وأسرته- لم يشفق عليها، هي ذاتها لم تكن لها أي واحدة من

تلك المميزات منذ وفاة والديها قبل ذلك بعشر سنوات.

كانت "سابين" قد نشأت عند ابنة عمة بعيدة. كانت حياتها متواضعة وكثيرا ما كانت تشعر بأنها تعيش ذليلة باعتبارها قريبة شابة تم احتضانها عن عطف. وعندما تزوجت بـ"جوليان"، كانت قد اعتقدت في سذاجة أن القدر أصبح في جانبها.

حينئذ كانت ابنة العمة "ماتيلدا" قد صاحت:

– أحد آل "كروازو"! ابن الماركيز... إنهم أثرياء جدا!

وكانت "سابين" قد أكدت:

– إننا نحب بعضنا.

– لا يهم يا صغيرتي. إنها فرصة غير متوقعة. حتى لو كنت لا تحبينه...

– إن أسرتنا محترمة مثل أسرتهم– هكذا اعترضت "سابين"– ليس لديهم ما نحسدهم عليه!

– ربما يكون لدينا أحياء كاملة من النبل، لكنهم لديهم من المال ما هو أوفر مما لنا، ها هو الفرق الذي بيننا– هكذا وضحت "ماتيلدا"– كما أنه يقبلك بلا دوطة!

وكان والد "جوليان"– وهو أرمل منذ عدة سنوات– سعيدا لاستقبال "سابين". كان يبدو أن المال لا أهمية له عنده مثلما كانت لابنة العمة "ماتيلدا".

ومع ذلك كانت "سابين" قد قطعت هذه الروابط، خدعت باستقبال الماركيز الأبوي وتركت "جوليان". لقد انتهت الفرصة غير المتوقعة.

ولكي تتخلص "سابين" من هذه الأفكار الرديئة تحققت من هندامها أمام المرآة، ثم تفحصت شعرها الممشط المصفف وتاييرها البيج، وتناولت حقيبة اليد، وغادرت حجرتها. الساعة التاسعة والنصف، ستكون في سفارة "فرنسا" في الموعد المحدد.

اخترق التاكسي الأحياء السكنية. اتخذت شارع "الحرية" "لا ليبرتيه". ثم واصلت مسيرتها حتى إلى "باساج" وسط ازدحام شديد

بسبب الأوتوبيسات وعربات اليد، والسيارات الفاخرة وكذلك المشاة، من لم تمنعهم أي إرشادات عن الابتعاد عن الطريق معرضين حياتهم للخطر، تجيبهم أصوات آلات التنبيه والاعتراضات والشتائم... تاثرت "سابين" عندما استعادت المناخ المرتبط بالبحر المتوسط والوجوه والحركة التي تميز المدينة، كما كانت أيضا تسجل ما قد طرأ من تطوير: شوارع اتسعت، وعمارات جديدة بنيت. كانت مدينة أخرى، حيوية، مزدحمة، بها رائحة النعناع، وشوي اللحم، والبخور. عندما كانت فتاة سعيدة، كثيرا ما تجولت في هذه الشوارع الرئيسية، ورفعت رأسها نحو أشجار الشارع الأوسط.

لقد وصل التاكسي وتوقف عند السفارة. كما أن عربات شرطة كانت تقف في هذا المكان. تابعت "سابين" السكرتيرة في الممرات. قالت:

– توجد عربات شرطة عند مفترق الطرق.

التفتت السكرتيرة وأردفت وقد بدا المكر في عينيها:

– آه فعلا.. إننا تحت الحراسة منذ ثلاثة أيام. يقال إن السفير الليبي يرغب في القيام بمظاهرات...

قالت "سابين" مازحة:

– إنه ليس "الإسكندر"، لكن ينبغي أن يتصف بالغازي...

– من هنا الإغارة على "تونس"! إنها أفكار دبلوماسية.

قالت الفتاة وهي تتراجع لكي تترك لـ"سابين" المجال لكي تمر إلى قاعة الانتظار الفسيحة:

– سأخطر السفير. إنه مع السيد "كروازو"...

عندما قالت ذلك بلهجة الاحترام، عاود الحزن "سابين" في الحال وكذلك الارتباك، لمجرد فكرة أن ما يفصلها عن "جوليان" مسافة قصيرة جدا.

ثم بعد أن جلست واتخذت مكانها لفترة لا تزيد على ثلاث دقائق ظهر السفير وبرفقته "جوليان" على عتبة مكتب ضخم.

أردف السفير وهو يتقدم نحو الفتاة:

– آسف، لقد جعلتك تنتظرين.

ثم قال "جوليان" دون أن يمد لها يده:

– هل نمت جيدا؟

أردفت وقد عزمت على الرد عليه في ثقة:

– تماما. ومع كل.. إننا تحت حراسة مشددة! وعربات الشرطة متواجدة في مفترق طرق المدينة.

أضاف السفير:

– الأخبار ليست مطمئنة. التونسيون يحشدون قوات على الحدود الليبية. لا شك في أن هناك أمرا يدبر، لكن كيف نثق بذلك؟

أكدت "سابين" في هدوء:

– يجب أن نتوجه إلى هناك.

– هذا هو رأي السيد "دي كروازو".

أضافت الصحفية بلهجة واثقة:

– إذا نزلنا عن طريق "جابيه" فمن الممكن بلوغ الحدود خلال ساعات. لقد عزمت على استئجار سيارة.

حينئذ صاح السفير:

– بسائق؟ لن ندعك ترحلين بمفردك!

اعترضت "سابين" وهي تبتسم:

– الشوارع ممتازة، كما أني أعرف البلد جيدا.

– إنك مخطئ في قلقك هذا يا عزيزي. ألا ترى أن "سابين ريفيير" فارسة (فتاة مسترجلة)؟ إنها بالتأكيد لا تتراجع أمام أي مخاطرة، بل قد يحدث أنها تثيرها أحيانا.

هكذا قال "جوليان" مازحا.

ألح السفير:

– وإذا تطورت الأحداث؟

أردف "جوليان" مؤكدا:

– أعتقد أنه ينبغي معرفة طرق السيطرة على مخاطر المهنة التي نختارها، أليس كذلك يا آنسة؟

واجهت "سابين" محدثها وأجابت:

– أرى أننا اتفقنا على الأقل في وجهة النظر هذه ولكل طريقته في التصرف في الحياة: الدبلوماسيون في الوزارات والصحفيون على مسرح العمليات.

استطرد "كروازو" في تسلط:

– عبارة قوية قد تتجاوز الحد. احذري من الإغراء في إثارة الأحداث. حتى الآن لم يتم شيء.

أما السفير وقد دهش لهذه اللهجة الشديدة التي يتبادل بها رفيقاه حديثهما، عمل على التفريق بينهما. قال:

– أتركك الآن هنا يا آنسة، سنتوجه إلى مكتبي.

أضاف "جوليان" ضاحكا:

– وأنا سأدعك تعمل. أتعشم يا آنسة ألا تزعجك لقاءاتنا التي سوف تتكرر خلال تجولنا في "تونس". أنا لا أرغب في أن أكون مزعجا بالنسبة لك. أعتقد أنك ستتواجدين في "جابيه" منذ الغد؟.

أجابت الفتاة بنبرة قد خلت من الحدة:

– أرجو ذلك.

قالت هذا وهي تنظر إليه وهو يبتعد نحو قاعة المدخل.

لكن كان عليها أن تبتسم بشجاعة للسفير وتدخل إلى مكتبه لتتابع معه حديثا جادا وتبدو ودودا، وفي الوقت نفسه ذات خبرة. لكن كان– أثناء حديثها– شيء ما بداخلها يتألم لرحيل "جوليان". لم يحاول قط العمل على التفاهم معها. لا شك في أنه اتخذ قرارا نهائيا، قد يكون بالرفض! كما أن ازدراءه لها– هذا من وجهة نظرها– لم يهتز لحظة واحدة!

في نفس اللحظة التي شعرت فيها "سابين" بهذا الضيق، كانت تخشى في مرارة أن تكتشف أنها– في اللحظة التي يتطلب منها عملها مزيدا من اليقظة والحذر– فارغة وقد أنهكتها الرغبة في الجري وراء "جوليان"، وأن تبكي على كتفه وأن تحكي له كل شيء.

– والحكومة التونسية لا تتحرك حتى الآن.

انتفضت.. السفير يلقي ضوءا على عناصر الموقف، يجب أن تكون يقظة، صاغية. قالت:

– ومع ذلك يجب ألا نضع ثقتنا في هذا الموقف. إذ إننا عندما نخشى حدوث تجربة ما، يحدث أن نوحي إلى أنفسنا بأنها لن تحدث.

ها هي قد تمالكت نفسها وقد تغلبت كبرياؤها وعزة نفسها. لقد ابتعد "چوليان" ربما لن تراه بعد ذلك أبدا، ومع ذلك، كان حديثها شائقا، لبقا مع السفير الذي كان يبدو مبتسما، ولا شك أيضا.. معجبا. كم أنه من السهل أن تكون إنسانة أخرى عندما يختفي "چوليان دي كروازو"! لكن ترى.. هل تستمر هذه الحياة الكئيبة الخالية من المشاعر والتي عانتها خلال عامين؟

عسى ألا تأتي مقابلة الإخصائية الاجتماعية بما يخشى منه.

كان السفير قد قال لها بلهجة أبوية:

– أعترف لك يا ابنتي العزيزة بأني كنت أفضل أن يكون معك من يرافقك في إرساليتك هذه.

– لقد أشرت– منذ قليل– إلى أن الحكومة ليست قلقة وكذلك رئيس الوزراء ذاته.

– وا أسفاه، أشك في رؤية رئيس الوزراء للأمور بوضوح. أعترف بذلك.

هكذا أجابها الدبلوماسي وهو يطلق زفيرا، وقد تخلى عن مظهر التحفظ الذي بدا عليه حتى تلك اللحظة:

– إنك تعرفين هذا البلد معرفة جيدة.

قالت "سابين" وهي تتأهب للانصراف:

– إذن هذا مبرر آخر. سيكون لدينا عمل كثير في الأيام المقبلة، وساعمل على أن أكون جديرة باستحقاق ثقة وتقدير رئيسي.

ثم استأذنت من السفير، وتوجهت إلى الصالون حيث التقت بالملحق الصحفي الذي كان قد رافقها إلى "الهيلتون" في الليلة السابقة.

تقدم نحوها، وقد بدا معجبا بها إلى حد جعلها تسر. وافته بأنها تنوي التوجه إلى الجنوب.

عرض عليها الآتي:

– ليتنا ننزل معا، لأني أنا ذاتي مضطر إلى التوجه إلى "جابيه" يوم غد.

– سنتقابل هناك! لأني لا أريد اختراق بلد تلقى فيه القنابل.

تنهد الشاب وقد خاب ظنه:

– على الأقل يكون في إمكاننا تناول الغداء معا.

قالت "سابين":

– عن طيب خاطر، لكن يجب أن ألتقي قبل ذلك بأحد الأصدقاء.

– مراسل صحفي أم من يمنحك معلومات؟

– نعم، كما أني سأقوم بجولة في الأسواق من أجل نفس الغرض.

– هل ستتوجهين بالمصادفة إلى "فريد".

– هس. الشرطة تراقب منزله ويجب عليّ اتخاذ الاحتياطات حتى لا أتسبب له في أذى.

– لكنك ستكونين مراقبة عند خروجك من هنا!

– ربما لا.. مادمت شقراء!

وفتحت "سابين" حقيبتها وأخرجت منها باروكة كثيفة ووضعتها على رأسها أمام دهشة الدبلوماسي الشاب.

وضحت ضاحكة:

– بذلك لن يتعرفني رجال الشرطة. وسيستمرون في انتظار "سابين ريڤيير" عند باب السفارة. في هذه الأثناء ساكون قد وصلت إلى المدينة!

بعد أن امتدحها، تمتم الشاب:

– أنت.. أنت مربكة.

ابتعدت كفتاة شقراء مجهولة تحت شعرها الجديد، وبعد قليل وصلت إلى الشارع المعروف لها باشجاره والمؤدي إلى شارع "بورقيبة". اخترقت الأسواق، استنشقت روائح عديدة مألوفة لديها. فكرت مرة أخرى في اللغز الذي أثارها عند وصول الرجل المسن قبل ذلك بعامين إلى منزلها. هل هي الآن هنا في بلد غريب أم أنها– بالعكس– في وطن أسلافها؟ إن السؤال منحصر هنا. سؤال أهم من كل المشاكل السياسية التي ينبغي

أن تضعها في الاعتبار أثناء إقامتها.

مرة أخرى أثبتت "سابين" أنها صحفية مثالية في حضرة الشاب الذي كانت قد توجهت لمقابلته. تقبلت- بابتسامة عرفان- المعلومات الثمينة التي كانت تمنح لها، ثم تركت مضيفها. وبالتأكيد بعد أن تناولت معه كوب شاي بالنعناع اللذيذ الذي يقدم دائما مع الفطائر، وبعدما استأذنت، عادت إلى الشوارع الضيقة المزدحمة على الدوام.

وعندما توجهت إلى سوق النحاس، شحبت الصحفية الشقراء: "جوليان" يتقدم في اتجاهها ببطء رافعا رأسه، وكأنه يحسب خطواته.. إذ كان يبدو مشغولا. كان ذلك باديا على التجاعيد الواضحة على جبينه..

عندما شعرت "سابين" بأنه اقترب منها، خارت ساقاها بها. استندت إلى باب خشبي مزدان بمسامير من النحاس. كادت تضع يدها على الذراع القريبة منها. تجاوزها دون أن يعرف هذه السائحة الشقراء واتجه نحو الشارع الضيق الذي كانت قد غادرته لتوها. هل هو ذاهب إلى "فريد" أيضا؟

"حسنا، إنها ليست مصادفة سحرية".. هكذا حدثت نفسها.. هذا يثبت ببساطة أن كلا منا يعرف- إلى من نتوجه للحصول على معلومات نافعة!".

ظلت مستندة إلى الباب، وكان مقبض الباب يؤلم ظهرها. ازدادت ضربات قلبها، وشعرت بانحراف في المزاج. كان جسم "جوليان" - في بدلته الكاملة وهي من "التويد البني" - بالنسبة لها نداء خطيرا.

ابتسمت بطريقة آلية إلى الصبي الذي أتى مقدما لها معونة عندما وجدها قد توقفت للعودة إلى المدينة الأوربية.

أمام إلحاح الصبي اضطرت إلى العودة إلى أفكارها.

- شكرا. إني أعرف الطريق.

- إلى أين تذهبين؟

- إلى "الهيلتون". سآخذ سيارة أجرة.

قال الصبي وقد بدت على وجهه هذه الابتسامة المعروفة لسكان المدن

المطلة على البحر المتوسط:

- إذن سأطلب لك سيارة أجرة.

تبعته بطول الشارع الذي كان يسلكه. كان يرقص أثناء السير، وكانت خصلات شعره السوداء التي تعلو رأسه تشبه خصلات شعر "سابين".

التفت فجأة وأعلن في سذاجة:

- سوف تلتقين بالليبيين في "تونس"، إنهم جنود في زي خاص.

سألته "سابين" حائرة:

- من أخبرك بذلك؟

- والدي، إنه بائع عطور. لقد سافر إلى القرية منذ يومين وهو في انتظارهم.

- أي قرية؟

- إننا نسكن في "توزير". أنا أيضا أتوجه إلى هناك أحيانا. لقد أخبرنا والدي بأنه سيعود معهم.

كانت "توزير" واحة تبعد بضعة كيلو مترات عن الحدود الجزائرية. لأن الليبيين لن يدخلوا من هنا، ولكنهم سيدخلون من الجانب المواجه.

بعد قليل وصلا إلى الساحة المشمسة أمام باب "فرنسا" "لابورت دي فرانس". حينئذ مرت سيارة أجرة وتوقفت عندما أشار لها الصبي، وهذا الأخير أسرع وفتح باب السيارة لـ"سابين".

جلست "سابين" في السيارة، وكانت ساهمة. من الممكن استنتاج أن الشائعات تملأ البلد بشأن احتمال عملية ليبية. هذا أول مقال لـ"ديفيفييه".

عندما وصلت الفتاة إلى الفندق كان الملحق الصحفي في انتظارها في الصالة. كان ممسكا بالجريدة- الصادرة في نهاية الفترة الصباحية- حيث كان أول مقال للصحفية. قال:

- أنا لا أستطيع التخلي عنك. إني أقرأ لك عندما تتغيبين. مقال ممتاز.

- كنت قد أمليته قبل رحيلي، لكن يبدو أن رئيسي كان قد قطعه.

قال الشاب مؤكدا:

– لقد أخطأ بالتأكيد. هل سنجلس إلى مائدة؟

– هل ترغب في الجلوس في مواجهة شقراء؟

– لا.. حقا لا.

– إذن، سأصعد لحظة إلى حجرتي. حاول– على أي حال– أن تتعرفني عندما أنزل!

وما إن دخلت إلى حجرتها رفعت الباروكة ووضعتها في دولابها، ثم مشطت شعرها بعناية لكي يستعيد وضعه المرتفع؛ لأنه كان قد هبط. فكرت "سابين" قليلا في التونسي الصغير الذي تقدمها في الأسواق. لابد أن لأمه نفس الشعر.

هزت كتفيها وأسرعت للقاء رفيقها. كان لابد لها من طرد الأسئلة التي لا فائدة منها من ذهنها والتي ربما كانت تستطيع الإجابة عنها عندما تكون قد تقابلت مع المعاونة الاجتماعية.

– بذلك، لقد خرجت من السوق سليمة، معافية على الرغم من بياض بشرتك العدائي؟

– اعترف بأنك كنت واضعا ثقتك في.

– في الواقع كنت قد شككت في أنك تحتقرين الجنس القوي. ومع ذلك كنت أراك رقيقة، تفيضين أنوثة ذات النظرة الشرقية.

هكذا أجاب عن استجوابات الفتاة. ثم استطرد:

– هل نطقت بما قد يجرح شعورك؟

قالت في حماس:

– آه.. لا! لكني مرتبكة بعض الشيء بعد ضوضاء السوق وما استعدته من ذكريات في "تونس".

حقا، لقد أفاد ما أبداه الملحق الصحفي من التفات وحسن مقابلة في تهدئة حالة الفتاة. وجدت فيه "سابين" متحدثا لبقا ممتعا، جعلها تسترخي قبل مواجهة اللقاء الذي كانت تخشاه، اللقاء في مستشفى "شارل نيكول" بعد ذلك في أقل من ساعتين، وبينما كانت "سابين"

تستمع إلى رفيقها وهو يمزح بالنسبة للموقف، وكذلك على عادات وحيل وبروتوكول السفارة، كانت تحلم باللغز الذي سوف تزيح عنه الستر لأول مرة في فترة بعد الظهر المشمسة هذه.

وحتى ذلك الحين تغيرت في هذه اللحظة. عن خوف، وعن حذر، وكذلك في مواجهة مشكلة معرضة لإيجاد حل أفضل.

"مسكين أيها الشاب إنك مهتم بأن تلهيني– هكذا فكرت– آه لو علم مدى عدم ثقتي المخفية خلف مظهري الواثق!".

وعندما افترقا، وعادت إلى حجرتها لكي تستعد لموعدها كانت "سابين" قد شحبت وملامحها قد تقست. وإذا بنوع من الخوف بلا داع يسيطر عليها، حتى أنها لم تعد تتأثر بوجود "جوليان" بداخلها حتى الآن. وكان قدرها من الآن فصاعدا يلاحقها كالخصم.

*****

كانت "ليلى شكري" سيدة ناضجة. استقبلت "سابين" في مكتبها ذي الجدران المطلية والأثاث البدائي، الذي كانت تشغله في أحد أجنحة المستشفى.

أوضحت "سابين":

– أرغب في تخصيص فترة إقامة من أجل هذه الأبحاث، لكن مادام عملي قادني إلى هنا قبل الموعد المحدد، لم أقاوم.

– للأسف، أنا لا أستطيع حتى الآن منحك ما قد يكون أكيدا.

هكذا أجابتها المشرفة الاجتماعية، وكانت ممسكة بملف رقيق ذي غلاف من الكرتون الأخضر.

– إذ إنه من البديهي، لم أتمكن خلال أربعة أيام من الحصول على معلومات كافية.

كررت "سابين" وقد اطمأنت بلا مبرر:

– من البديهي.. ولم تحصلي أيضا على تثبيت.

– أستطيع فقط أن أؤكد لك أنه في الموعد الذي وافيتني به، لم تولد

طفلة واحدة في مستشفيات "تونس" تنطبق عليها هذه الحالة. يجب أن نبحث في مكان آخر.

"الحالة".. إنها الكلمة المضبوطة المناسبة. لقد تلخصت حاليا الأسئلة المؤلمة التي كانت بداخلها في كلمة "الحالة".

استطردت "ليلى شكري" مبدية ابتسامة مرحبة:

– لا شك في أن ظنك قد خاب. لكننا لم نبدأ البحث إلا منذ فترة وجيزة.

– أنا مقيمة هنا لبضعة أيام ومع ذلك يجب أن أتغيب عن "تونس" منذ الغد.

سألتها في مكر:

– الليبيون؟

– كيف علمت ذلك؟

– كل التونسيين يقرأون صحيفتك يا آنسة! أود أن أخبرك بأن تقريرك الصحفي عن المرأة المسلمة أعجبنا كثيرا.

أجابت "سابين" باللغة العربية:

– إني أفخر بذلك.

قالت الأخرى مبتهجة إذ تمكنت من تبادل الحوار بلغتها الأم مع إحدى ممثلات الصحافة الفرنسية:

– سابذل أقصى جهدي لمعاونتك.

– إذن، سارك فور عودتي إلى "تونس"؟

– إذا حصلت هناك على معلومات فسأتصل بك. وأؤكد لك أن مهنتي تلزمني بالتكتم، لذلك لن أكشف عن هذا الأمر لأي أحد.

وهكذا أظهرت لطفها في تحفظ وشعرت "سابين" فجأة بأن غرضها قد فهم وأنها اطمأنت إلى حد ما.

– لا تحدثيني عن هذا الموضوع أكثر من ذلك.

هكذا أضافت المشرفة الاجتماعية.

– ساكون غدا في فندق "الواحة" في "جابيه".

سألتها "ليلى شكري" دهشة:

– في "جابية"؟

– سأنزل إلى الحدود في اليوم التالي.

فما كان من المشرفة الاجتماعية إلا أن أقرت بلهجة لا تحتاج إلى اعتراض:

– لا يمكن أن تتسبب الثورة اللازمة فيما هو سيئ.

قالت هذا وشعاع مرح قد بدا في عينيها العسليتين.

ثم صمتت الفتاتان. وإذا بـ"ليلى شكري" تمسك بكتفي "سابين" في مودة وتعلن في بساطة:

– أرجو أن تحمل إليك المعلومات التي سنحصل عليها السعادة والسلام. إلى اللقاء يا "سابين".

شدت الصحفية الشابة على يد صديقتها الجديدة وقد اغرورقت عيناها بالدموع من شدة تأثرها ثم انصرفت. وخلال ممرات طويلة تلاقت مع مرضى وأسر مرضى قد أتوا للزيارة. وكانت تبدو على وجوه الرجال والنساء علامات الخضوع المأساوي.

لقد حان الوقت للتوجه إلى الوكالة الفرنسية للصحافة، حتى تلتقي بزملائها في العمل.

لحسن الحظ، كانت سيارات الأجرة تتجول في المدينة وفي هذه الساعة. كانت المحطات خالية من الزحام. وخلال دقائق– عندما غادرت الشوارع الخارجية– استعادت "سابين" مناخ وسط المدينة المميز.

وعندما وصلت إلى عمارة "فرانس بريس"، كان المصعد يرتفع بالركاب. انتظرت دورها، وقد فرغ صبرها. وعندما رفعت عينيها نحو القفص لمباشرة حركات الوحش، سمعت صوتا يناديها:

– إني حقا متأثر! سوف نضطر إلى أخذ وسيلة الصعود هذه معا. هذا إلا إذا كنت تفضلين صعود الطوابق الخمسة في رشاقة.

التفتت "سابين" وقد أخذت للنبرة غير أنها كانت قد عرفت أنه صوت "جوليان".

– إذا كان هذا الظرف قد ضايقك فانتظري إلى أن أعيده لك!

قال "جوليان" معترضا:

– أرجوك، كفي عن الرد بالمثل! إنك لا تجيدين ذلك!

وكان في نفس الوقت قد أمسك بكتفيها محتفظا بها عن بعد، دون أن تتمكن من الاعتراض من شدة ارتباكها.

تمتمت:

– أنا لا أفهم...

– "سابين ريفيير"! لقد اتخذت لك اسما للمعركة. هل هي فكرة "ديفيفييه"؟

هزت "سابين" خصلات شعرها مثل طفلة قد عنفت، ثم أجابت:

– لا يهم. على أي حال، إنه غير ملم بالأمر!

– كنت أتفحصك بالأمس. إنك فريسة قيمة بالنسبة لشاب ساحر مثله! لأنك كفيلة بإيقاع أكثر الأشخاص حرصا! هيا! اصعدي!

وفتح المصعد أمامهما. دفع "جوليان" بـ"سابين" إليه، وبنفس الحركة مال من أجل قبلة فظة. حاولت التخلص منه. ولما كان المصعد يرتفع ببطء حاول ضمها إليه، ومن جانبها– خلال لحظة– خضعت للرغبة ووضعت يديها على يدي "جوليان". غير أنه ألقى بنفسه إلى الخلف وهو يبدي ضحكة رديئة.

– لا سبيل للمقاومة.. أليس كذلك؟ ولا حتى نزعة كبرياء! كم خدعتني!

توقف المصعد أمام الطابق فاتحا بابه أمام الثنائي الممزق.

اندفعت "سابين" وقد سيطرت عليها الرغبة في الانتحاب. مرت أمام "جوليان" وأسرعت إلى باب الوكالة. وكان من خلفها "كروازو" يقهقه ساخرا، حاقدا:

– أعتقد أنها الرغبة في الرجال هي التي عاونتك في عملك! ولا شك في أنه بإذن من "ديفيفييه". لابد أنه مستعد لكل شيء لكي يزيد من قدر صحيفته بالحصول على معلومة إضافية.

شعرت "سابين" فجأة بأنه قد فاض بها. إنه ظلم وتصرف فظيع! وعندما لمحت سلم النجدة نزلت بسرعة مصدرة صوتا بكعب حذائها على كل درجة، محاولة ألا تتعثر في تعجلها. هدأت قليلا للمسافة الضئيلة التي تواجدت بينها وبين جسد زوجها. وكان شريط سينمائي يمر أمام ذاكرتها أثناء هربها وهي في حالة تعاسة وتخاذل وكذلك محاطة بالذكريات السعيدة.

لماذا تصرفت على هذا النحو؟

في الواقع إنها تعرف السبب... وهو أحد أسباب يأسها العميق. إنها المسؤولة الوحيدة عن حقد "جوليان" لها. ما الذي دفعها مرة أخرى إلى الهرب وإلى الرفض قبل أن تسعى إلى التفاهم؟

لا.. إنها لا تستطيع الظهور أمامه بعد زيارة "المراسل"، ولا تستطيع أيضا أن تبتسم له وأن تكون هي ذاتها. ومع ذلك من هي؟

وفي السيارة التي أعادتها إلى "الهيلتون" لم تشاهد الشوارع– حيث تتخذ عربات الشرطة مكانها رسميا– إنما مدينة أخرى ضاحكة، مسالمة، هادئة، تغمرها الشمس المشرقة. عندما كانت تلعب "الحجلة"– حينئذ– كان الجميع يحبون "سابين دي بيمورينس"، الشهادات المدرسية، أول بطاقة هوية. عقد زواج. "سابين دي بيمورينس" هل تقبلين "جوليان دي كروازو" الحاضر هنا زوجا لك؟".

استسلمت "سابين" للدموع وهي داخل السيارة... وأصبحت المنازل والأشجار مشوشة في زجاج السيارة، تماما كما تشوشت ذكريات طفولتها، صور سعادة حديثة وحب جم. نعم لقد تعتمت فجأة صورة كل هذه الأشياء عندما سأل الرجل المسن ذو المعطف الرمادي:

– آل "بيمورينس"؟ إني صديق قديم... الدكتور "ڤيريير". هانا عائد من الصحراء لقضاء عدة أشهر هنا... إني أحيا في الصحراء...

كانت "سابين" قد أجابته وهي تشير إليه بالدخول إلى منزل والديها الذي تسكنه مع زوجها "جوليان" لعدة أيام قبل رحيلهما إلى "بيروت":

– آل "بيمورينس" ماتوا في حادثة سيارة مروعة.

– آل "بيمورينس" ماتوا في حادثة سيارة مروعة.

– ماذا! كلاهما؟ مات الاثنان؟

ألقت "سابين" بنفسها على مقعد ذي مسندين في مواجهة الرجل المسن المسكين الذي ارتبك من تأثير الخبر عليها، لكن عندما عادا إلى تبادل الحديث بدأ الكابوس الفظيع. كانت "سابين" كلما أدلى بذكرياته– وكانت سعيدة حتى هذه اللحظة– تبتعد عن طفولتها، عن أسرتها وعن أسلافها الذين قد لقنت كيف تحترم ذكراهم.. لقد فقدت هويتها، بقدر ما كان قلبها يخفق ومستقبلها ينهار، والحب أيضا فقد وجوده.

وكانت باقة الورد الكبيرة التي أحضرها الزائر، مازالت في ورقها على المائدة المنخفضة...

عندما تواجدت بمفردها أعدت "سابين دي كروازو" حقيبتها وغادرت المنزل تاركة إلى زوجها رسالة قصيرة:

"المعذرة يا "جوليان" لقد خدعتك بدون قصد يجب أن أرحل لكي أجد نفسي".

لم تجرؤ على إضافة: "أحبك". كان ينبغي أولا أن تعلم الحقيقة، إذا كان لها الحق في حب "جوليان دي كروازو"، الوريث الوحيد لأسرة لا غبار عليها.

– حزن بسبب الحب يا آنسة؟

وكان سائق السيارة يبتسم لها في مرآة السيارة.

– تقريبا.

هكذا أفصحت "سابين".

أردف مؤكدا:

– إنه لا يدوم أبدا. أتعلمين ذلك؟ إن المرء يشفى منه بعد فترة تتراوح ما بين ثلاثة أو ستة أشهر على الأكثر.

– بلا شك.

الفصل الثالث

– آلو! معي على الخط اتصال من "باريس".

– آلو، الآنسة "ريفيير"؟

– نعم يا سيد "ديفيفييه". لقد أمليت ورقتي.

– أعلم ذلك جيدا! أنا لا أطلبك من أجل هذا الأمر، لكن لكي أخبرك بوجود "جوليان دي كروازو" في "تونس".

في الواقع إنه حضر السهرة في السفارة ليلة أول أمس.

– في إمكانه أن يحيطك علما بالعديد من الأمور. إن له وظيفة في "بيروت" منذ عامين، ومع ذلك فهو يعرف كل الشرق الأوسط. ولن يرفض بالتأكيد معاونتك.

أكدت "سابين":

– لكنه... لكنه قد قام بذلك.

كيف كانت ستوضح لرئيسها الذي يجهل كل شيء عن ماضيها، عن عدم إمكانيته استخدام هذا المتحدث القدير؟

لذلك أضافت:

– إنه يعتقد أن الشائعات لها أساس من الصحة؛ لذلك سوف يتوجه هو أيضا إلى "جابيه".

– لي بك كل الثقة. وهنا أيضا مراسلونا– جميعهم ذوو خبرة. وعدا ذلك... هل سعدت بالعودة إلى البلد؟

– آه نعم، بقدر ما...

ثم توقفت إذ شعرت بالضيق...

سألها "ديفيفييه":

– بقدر ما... ماذا؟ آلو؟ لا تقطعي!

– لا يا سيدي، كنت أقصد بقدر ما أشجار اللوز مزهرة.

– خبر جديد يا عزيزتي! سيتصدر الصفحة الأولى من نسختنا القادمة!

ثم وضع السماعة وهي كذلك. في نفس اللحظة رن جرس التليفون

من جديد. أمسكت بالسماعة. سمعت صوت الملحق الصحفي يقول:

– هل كنت في انتظار أحد ما حتى تتعجلي في وضع السماعة أم أنك اعتقدت أني شخص آخر؟ في هذه الحالة آسف!

– لا أبدا. لقد حصلت على جريدتي، سأتناول القهوة بعد ليلة نعاس.. هذا كل الأمر!

– وهل قررت النزول معي إلى "جابيه"؟

– لا..

– "روبير"! اسمي "روبير".

– حسنا، لا يا "روبير"! سأتوجه بسيارتي.

– جيد جدا. إنك صحفية متوحشة، إحدى تلك السيدات اللاتي يدفعن بالرجال إلى الهلاك.

اعترضت "سابين" وإن كانت قد استراحت للنبرة الودية:

– لا تمتدحني هكذا. سنقوم بالبحث– كل منا على حدة– لأن هذا سوف يسهل لنا العملية.

– موافق على ذلك طالما تلحين. هل أنت حرة لتناول الغداء؟

– لا. يجب أن أتقابل مع صديقة تونسية. إني على موعد معها.

– إذن أتركك. آسف!

– أعدك بالاتصال بك من خلال مكالمة تليفونية قبل مغادرة "تونس"!

وضعت السماعة، ونظرت إلى ساعتها. إن "ليلى شكري" بالمستشفى بالتأكيد. كانت قد فكرت فيها. كانت السيدتان قد قررتا اللقاء لتناول وجبة غداء سريعة معا. كانت "ليلى" قد أضافت قبل أن تخفض السماعة:

– لقد اتصل بي مستشفى "جافا" منذ أقل من ساعة. لقد تمت ولادة ثلاث بنات في تلك الليلة وأعتقد جيدا...

سرت "سابين" هل ستعرف أخيرا؟ وماذا ستعرف؟ وكيف ستتقبل الحقيقة؟ أي حقيقة؟ "جوليان"...

– أين سيكون لقاؤنا؟

– في منزل أسرتي لأني أعيش معهم. في "بيلفيدير" يجب قبول

تناول الغداء عندنا. إن والدتي طاهية ماهرة.

سألتها "سابين" في مرح:

– كسكسي أم ملوخية؟

– لا.. "جاناويه"!

– لم أتوقع ذلك! بالتوابل لا شك في ذلك مع الصلصة السميكة.

– أعتقد أنه في إمكاني أن أعدك به!

كانت طاهية آل "بيمورينس" فيما مضى تحضر هذا الطبق اللذيذ على المائدة. وهو اليخني كثير التوابل بالبامية.

جلست "سابين" على حافة سريرها، بالقرب من التليفون، المندوبة الخاصة لجريدة يومية جادة. وفجأة انهمرت دموعها عند ذكر اليخني المحبوب... كانت هناك فرصة للضحك.. لكنها بكت، بكت من الحزن، من الخوف ومن اليأس. بكت "جوليان" وطفولتها السعيدة في آن واحد، وكذلك وحدتها التي عادت إليها، الحب المفقود والمصادفات الشرسة التي تراكمت على مولدها.

كانت في حاجة إلى فترة قد تصل إلى الساعة حتى تقاوم. إن الصورة الهادئة المسالمة التي لـ"ليلى شكري" ساعدتها على استعادة رباطة جاشها. كان لابد لها من أن ترحب بضيوفها، وأن تتزين بعناية، وأن تبدو مبتسمة دائما.

كان لابد لها أيضا من أن تستعد لمعرفة الحقيقة.

إذا حصل المستشفى في "جافا" على أثر لهذه الفتاة الصغيرة، هل ينبغي إذن أن تتوجه إلى هذه المدينة؟ لكن التقرير الصحفي المكلفة به يقودها إلى الجانب المواجه؛ لذلك يجب أن تتذرع بالصبر، وتنتظر إلى أن يحل الموقف السياسي... لم تكن– إلى حد ما– غاضبة لهذا المانع لكنها كم كانت تخشى الحقيقة... تخشاها إلى حد...

*****

عندما استقبلت "ليلى شكري" "سابين" في حديقة أشجار البرتقال

الصغيرة قالت:

– مازلنا نجهل اسم الأم. سيبحثون عنه في الأرشيف. وهذا يتطلب عدة أيام... مرحبا بك.

وبينما هي تتبع "ليلى" إلى المنزل، عاودتها ذكريات سعيدة. حديقة آل "بيمورينس" تبعث بنفس الروائح...

والدا "ليلى" ظريفان ومرحان. إنهما لم يستقبلا "مندوبة خاصة" إنما صديقة لابنتهما.

عملت الأطعمة الشهية والحلوى والفطائر اللذيذة على إعادة "سابين" إلى حياة البساطة وإلى المرح البريء. مرت ساعتان كما في حلم وكانت "ليلى" هي التي رافقتها بنفسها حتى الفندق في سيارتها الصغيرة. وتحت رواق "الهيلتون" افترقتا.

قالت المرشدة الاجتماعية مبتسمة:

– أرجو أن تكون لنا فيما بعد محادثات أخرى عدا هذا اللغز.

تنهدت "سابين":

– إني في الواقع أتمنى سماع الكثير.

– عديني أن تعودي إلى "تونس" على أي شكل.. ومع كل، من الممكن أن نعتبرك من الأسرة.

قد تكون في الواقع تونسية، لكن كان لابد من أن تتخلى بشكل قاطع عن "چوليان"...

كانوا قد استقبلوا الفتاة سليلة آل "بيمورينس" عند آل "كروازو"... وكان قد حدثها بنفسه كثيرا عن أسلافها. كما أنه كان يعرف أسرة زوجها معرفة جيدة... ولجت– منكسة الرأس– قاعة الفندق الفاخرة!

– الآنسة "ريفيير"! يا للسعادة!

وإذ فوجئت، التفتت. "جورج ويندو" المكلف بالاعمال البريطانية يتقدم نحوها.

قال وهو ينحني للتحية:

– ستتناولين كأسا معنا.. أنا والسيد "دي كروازو".

شعرت "سابين" بأن قلبها يخفق بشدة. وإذا بخوف بلا داع يتملكها ويجعلها ترتجف.

– آسفة يا سيد "ويندو"، لانه لابد لي من أن أستعد. بسأرحل إلى "جابيه". وربما تكون سيارتي قد أعدت...

– ولو لدقائق...

– لا، حقا...

وفي نفس الوقت الذي كانت تبدي فيه امتناعها، كانت معرضة لملاقاة "چوليان"... قد يكون مختبئا خلف أحد الأعمدة المحيطة بحديقة الشتاء.

– إذن رحلة سعيدة يا آنسة، لكننا سوف نتأثر بذلك.

استطردت:

– أدهش لذلك، لأني لا أظن أن السيد "كروازو" سوف يقدر هذا الموقف.

– ولم لا؟

هكذا جاء من خلفها صوت "چوليان" بنبرة ساخرة.

– إنك إنسانة متميزة يا آنسة "ريفيير"!

التفتت وقد صعقت إزاء لهجة "چوليان" الساخرة. كان يرتدي بدلة كاملة بلون داكن تعرفها جيدا، لأنهما كانا قد اختاراها معا في "لندن"، أثناء رحلة قصيرة إلى هناك حيث قضيا بضعة أشهر بعد زواجهما.

لقد استسلمت لقيادة "ويندو" لها بطريقة آلية. اعترتها رغبة شديدة في لمس ملابسه.

"لقد جننت، إني متعبة" هكذا فكرت وهي عاجزة عن إبعاد نظرها عن السترة، عن القميص الأزرق، بقدر ما هي غطاء لهذا الجسد الذي عرفته ولن تنساه.

– ترى هل لمح ارتباكها؟ لا شك لأنه هو أيضا عرفها فيما مضى، وكان أيضا قد حصل على القدرة– بالصبر والحنان– لكي يمتلكها ودون أن تظل له.

أبدى ملاحظته:

– يبدو أنك لا تتمتعين بمزاج حسن يا آنسة.. حقا.. إن عملك مرهق ويحتويك تماما..

وإذ كانت "سابين" تفضل هجمات "جوليان" على صمته، أجابته في عناد:

– إن عملي يعجبني كثيرا. ولقد تناولت حاليا غدائي عند أصدقاء تونسيين. لحظة ممتعة حقا!

تدخل "ويندو":

– ليس في مقدورنا أن نقول بالمثل، لأننا كنا عند رئيس الوزراء، هذا الرجل المزعج، الممل...

حينئذ صاح "جوليان" ضاحكا:

– انتبه! يجب ألا نكشف عن الأسرار التي ائتمننا عليها والتي سوف تنشر غدا!

اعترضت "سابين" بقولها:

– قد لا يستطيع الوزير منحكما أسرارا يجهلها هو ذاته. إنه آخر من يحصل على المعلومات! لقد أوصاني السيد "ديفيفييه" بأن أتجنبه.

استطرد "جوليان" بنبرة هازئة:

– إذا كان "جان ديفيفييه" هو الذي طلب منك ذلك، إذن فهو الآمر بذاته، الحاكم بأمره، الفذ في الصحافة!

اعترض "ويندو":

– لا تنطق بما يسيء إلى صديقي "ديفيفييه" إنه ثعلب، لكن يا له من موهبة!

وعندما قبلت "سابين" السيجارة المقدمة لها من الدبلوماسي الإنجليزي أردف "جوليان":

– هانت تدخنين. ربما تشربين أيضا؟ إن السيدة التي تقوم بالأعمال الحرة يجب أن تحيا حياة الرجال.

وقد فوجئ باللهجة التي كانا يتبادلان بها الحديث، مكث "ويندو"

المسكين لحظة ممسكا بقداحته مشعلة عن بعد. فما كان من "سابين" إلا أن قذفت "جوليان" وهي تنفخ بدخان سيجارتها في وجهه قائلة:

– هل ينبغي أن أستنتج أنك– بصفتك رجلا– تفرط في الشرب؟

لكنها ندمت في الحال على حركتها الطفولية هذه.

أردف الإنجليزي:

– كلنا ندخن ونشرب في هذه المهنة الشاقة.

أكدت "سابين":

– لكن رئيسي لا يحتسي الشراب أبدا. إن له إرادة قوية حقا!

أردف "جوليان":

– أرغب في تصديق أنه عبقري ونابغة عالمي، وأنك محظوظة بتواجده على طريقك...

– بالضبط..

هكذا أبدت "سابين"، وهي تأمل بذلك إثارة محدثها.

ثم نظرت إلى ساعتها وأضافت:

– يجب أن أطلبه قبل رحيلي إلى "جابيه".

فما كان من "كروازو" إلا أن نهض فجأة قائلا:

– إذن يجب ألا نستبقيك. وأنا كذلك.. ينبغي أن أعد حقائبي.

سألته "سابين" وقد تغيرت نبرة صوتها الأمر الذي دهشت له هي ذاتها:

– هل ستتوجه إلى "بيروت"؟

– لا.. سأرحل نحو الجنوب.

بدت حينئذ الكآبة على وجه "جورج ويندو". من البديهي أن الدبلوماسي بدأ يشك في عداء مرافقيه.

أعلن:

– لن أعمل مثلكما، لأن من واجبي أن أمكث بالقرب من هذه القنينة.

قال هذا وهو يشير إلى زجاجة الشراب، وكانت مملوءة إلى حد ما..

قال "جوليان" ضاحكا:

– كما يحلو لك يا زميلي العزيز. تعالي يا آنسة سأصطحبك إلى المصاعد.

كادت "سابين" ترفض، لكن نظرة "ويندو" الدهشة أوقفتها. إذ كان من الأفضل العمل على التحفظ، وإن كان مظهر "جوليان" قد أضعف من قيمة هذه الاحتياطات.

وعندما ابتعدا معا– للتوجه إلى الصالة– شعرت بيد زوجها تحت مرفقها. تمتم:

– يا لمتعة تواجدنا بمفردنا أخيرا!

قالت وهي تدخل أحد المصاعد حيث كان به اثنان من السعوديين ذوي اللحى السوداء:

– ألا تجد أن الموقف طبيعي بعض الشيء؟

سألها "جوليان" وهو يضغط على الزر:

– الخامس. أليس كذلك؟

"سابين" لم تجبه. وكان الرجلان السعوديان يبتسمان لها. ثم قاما بتحية مرافقيهما، وخرجا إلى الطابق الثالث. وبذلك أصبح الزوجان بمفردهما خلال المسافة القصيرة التي سيقطعانها حتى حجرة "سابين".

قالت "سابين" وكانت لا تجرؤ على وضع المفتاح في كالون الباب:

– ظننتك ترغب في إعداد حقائبك.

أمسك "جوليان" بالمفتاح، وكان أول من دخل.

– إنك لم تغيري من عطرك.

هكذا أبدى ملاحظته.

تأثرت "سابين" إلى حد أنها كادت تخضع للرغبة في أن تحكي له كل شيء، أن تسرد له– بلا شكوك أو وساوس– أحداث مأساتها منذ انفصالهما.

قالت في خجل:

– ربما ينبغي أن أوضح لك.

اعترض "جوليان":

– آه.. لا! لا تعملي على وضعنا في موقف أسوأ مما نحن فيه طوال عامين. إنك حرة التصرف، افعلي ما تشائين يا "سابين" من الآن فصاعدا. على الأقل أعفيني من أسرارك!

– إذن ماذا تفعل هنا؟

اقترب منها، وأخذ بكتفيها لكي يجذبها إليه.

– أعمل ما يحلو لي. لقد حدث أنك قد أصبحت أكثر جمالا. من الطبيعي أن يستفيد الزوج من فرصة تقدم له.

ابتعدت عنه "سابين" في اعتراض. قالت:

– إنك جسور. هل تريد أن تذلني؟

اقترب أكثر منها. شعرت كأن الحجرة تهتز بها. وما هي إلا لحظات وإذا بشفتي "جوليان" تتواجدان على شفتيها حتى تذكرها أنها مازالت محبوبة الماضي الصغيرة. لكنه أصبح محتقرا، حقودا.

حاولت مرة أخيرة الكشف عن الحقيقة، فتمتمت:

– "جوليان".

تضاعفت الملاطفات، وكانت "سابين" تقاوم. كان كل كيانها يرغب في العودة إلى "جوليان". ومع ذلك لم تكن السيدة التي بين ذراعيه هي ذاتها. وكان كل منهما لا يستطيع تحديد من هي. فجأة بدا لها وجه "ليلى" المبتسم. لابد أولا من الوقوف على الحقيقة، وألا تستسلم له، لئلا تضطر– خلال أيام– إلى رفضه بصفة نهائية.

لكن هو الذي انتصب فجأة ولاحظ وقد أثلج:

– إنه ما بدا لي بالأمس. إنك عاجزة عن المقاومة. إني أتخيل ما اكتسبته زوجتي خلال عامين من الحرية!

ودون أن تجد الوقت الكافي للاعتراض على كلماته هذه خرج "جوليان". ألقت بنفسها على السرير. لماذا كان عليها أن تعيش في الصمت، وأن تهرب أمام الرجل الذي أحبته؟ كان عليها أن تنتظر، وأن تقف على الحقيقة، لأنها تسعى الآن إلى الكشف عن هذا اللغز منذ أن علمت أنها إحدى بنات آل "بيمورينس" غير أنه كان بها جزء لا يتعجل

معرفة الحقيقة.. الصعبة.

رن جرس التليفون. نهضت ببطء لكي ترد:

– الآنسة "ريفيير"؟ الاستقبال. سيارتك معدة منذ ساعتين.

– آه! شكرا سانزل خلال ربع الساعة.

كانت قد غفلت عن "جابيه"، والسياسة، ومسرات المهنة التي– منذ أن رأت "چوليان" – بدت لها صعبة وغير مرضية.

غير أنه كان لابد من أن تعد حقائبها وتعاود مسيرتها. إن رئيسها في العمل رجل لا يقبل أن يعيش الصحفيون الذين يعملون معه حياة الحب على حساب عملهم. هذا بالإضافة إلى أن عليها أن تلحق بـ"جابيه" في المساء وبذلك يكون الطريق شاقا.

وكانت– أثناء استعدادها المتلاحق– تسمع صوت "چوليان" عندما دخل إلى حجرتها "إنك لم تغيري نوع عطرك" بذلك هو أيضا يتذكر. وربما أنه يتألم– أحيانا– لانفصاله عنها. لكن لماذا لم يجر أية محاولة لكي يراها؟

اتصلت "سابين" هاتفيا مرة أخرى بـ"ليلى شكري" قبل مغادرتها لحجرتها. ولم تكن هذه الأخيرة في مكتبها، وعندما عرضت عليها السكرتيرة أن تبحث عنها في مقر الخدمة– رفضت "سابين" وقد خجلت لعدم صبرها بعد عامين من الانتظار. غير أنها منذ أن رأت "چوليان" ثانية، أصبحت تتعجل المعرفة حتى لو كان ما هو أسوأ.

كانت السيارة المعدة لها 404 بيضاء. ولما جلست فيها شعرت بالاستقرار، لأنها كانت تجد نفسها محمية، معزولة عن العالم بمفاجآته السيئة. كانت تحب القيادة، ربما لأنها كانت قد تعلمتها بسهولة بفضل "چوليان" أثناء فترة الخطوبة.

"چوليان"، "چوليان"، "چوليان"، وليس سواه، إني كائنة أنا أيضا وليست غلطتي إذا كان القدر..." هكذا أردفت بصوت عال عندما انطلقت السيارة.

وكان اختراق المدينة بمثابة تجربة. استعادت مرة أخرى إطار طفولتها

السعيدة، وكان كل وجه تشاهده، يبدو مألوفا لها.

"إذا كنت قد أحببت هذا البلد، ربما يرجع ذلك لأن أصلي فيه" هكذا فكرت.. إنه إثبات إضافي– هكذا بدا لها– أن "چوليان" لم يتزوج من آل "بيمورينس" وإن كان الزواج سوف يعتبر باطلا في هذه الحالة.

ثم تاركة عن يسارها طريق الحمامات، انطلقت "سابين" على الطريق المؤدي إلى "سوس". بعد أن قطعت مسافة عشرين كيلو مترا في هذا الاتجاه، إذا بشبح رجل يبدو أمامها مبديا بعض الإشارات. هدأت السرعة.

إنه الملحق الصحفي الفرنسي، مستندا إلى سيارته المعطلة. صاح عندما عرفها:

– كان في إمكانك اعتبار ذلك دسيسة مدبرة، لكن بالنسبة لي إنها مصادفة رائعة.

استطردت "سابين" غير واثقة بعض الشيء، متسائلة إذا كان هذا الـ"روبير" اللطيف لم يدبر هذا اللقاء على الطريق:

– لا شك في أنه يوجد في "سوس" ميكانيكي أو صاحب جراج.

عاتبها في مرح وهو يجلس بالقرب منها:

– إنك لم تتصلي بي كما هو متفق عليه.

– حقا، لقد غفلت عن ذلك. لقد تأخرت لأني اضطررت إلى تناول مشروب مع الملحق الصحفي الإنجليزي.

– كنا معا عند رئيس الوزراء. وكان "كروازو" هناك أيضا.

أجابت "سابين" دون إبداء أي اهتمام:

– في الواقع، لقد وجدته برفقة "ويندو".

– لقد سألته عن الطريقة التي تجسس بها علينا في تلك الليلة التي رافقتك فيها إلى "الهيلتون". وسألني إذا كنت أسعى إلى التقرب إليك!

– نعم، حينئذ قلت له إني لا أعرف رجلا غير كفيل بالتقرب إلى إنسانة بمثل هذا الجمال.

– وبم أجابك؟

– إنه لا يحب الفتيات المسترجلات!

صاحت "سابين" وقد جرحت في داخلها:

– لابد أنه ملتزم جدا.

– مع ذلك إني معترف بجميله لأنه هو الذي أوحى إلى السفير بإرسالي إلى الحدود الليبية؛ لذلك إني مدين له بلقائنا هنا!

ولم تغضب "سابين" كثيرا بأن يكون بالقرب منها رفيق ممتع. لأن "روبير" اللطيف أفاد في جعل الطريق أقصر مما هو عليه وأقل كآبة.

استطرد الدبلوماسي الشاب:

– بذلك ليس لك أي ارتباطات عاطفية وأنت إذن حرة مثل الريح؟

– ربما يكون في حياتي رجل لا يحب المرأة المسترجلة، هكذا قالت "سابين" مازحة.

أردف "روبير" مؤكدا:

– أظن أنك لن تختاريه . لا . . لأنه عندما تتلقين نظرة أحد الرجال، فلابد من أن يكون مغامرا. هذا هو اعتقادي.

– ربما، ومع كل سأفكر في ذلك من الآن فصاعدا.

– ساعمل على أن ياخذ صاحب جراج "سوس" سيارتي، لكن ليتك تتكرمين وتقبلينني معك حتى الـ"جيم" لأني بذلك لن أتاخر على موعد . . .

– موعد عمل؟

– نعم، عمل!

– حسنا، ساعمل على اصطحابك، لكن كيف ستتصرف مع سيارتك.

– لي أصدقاء تونسيون في "سوس" سيعملون على نقلها إلى الـ"جيم".

– هل تحب "تونس"؟

– نعم. إني أعشقها، لكن بما أن لي هنا عامين، فإني معرض للرحيل خلال عام.

– ألم تعشق تونسية قط؟

– هل هو فخ؟

– لا، أود أن أعرف، هذا غاية ما في الأمر.

– حسنا. لقد تعشمت بعد وصولي بستة أشهر، أن انجح في إغراء فتاة جميلة جدا. . . والدها رسام مشهور، موهوب، كما أنه متسرع في حكمه: لقد أرسلها في الحال إلى إحدى عماتها! ولم أرها منذ ذلك الحين!

– وبصفتك شخصا دبلوماسيا . . ألم تخش أن يتسبب لك زواجك من أجنبية في خلق المشاكل؟

– لا. لأن الجنسية الفرنسية تمنح بصفة طبيعية بالزواج.

– حقا! إن سؤالي غبي.

هكذا استطردت "سابين".

بالنسبة لـ"چوليان" ليست مسالة جنسية التي يواجهها، إنما موضوع هوية. كان قد تزوج بامرأة، هل يقبل بديلة لها- بأي وسيلة- عندما يعلم سر ولادة "سابين"؟

كان كل شيء- بالتاكيد- يعيدها إلى "چوليان"، أو بمعنى أوضح، إنها هي التي كانت تختار الادعاءات التي تجعلها تفكر فيه على الدوام.

"قد تكونين من ذوينا" هكذا قالت لها "ليلى شكري" وهي تتركها . . . ربما كان أيضا لـ"سابين" أم جميلة كان قد سحرها أحد الدبلوماسيين العاشقين . . . فتاة لم يستبعدوها عند عمتها أو إحدى الخالات البعيدات، كما حدث مع "روبير" المسكين.

عملت أحاديث "روبير" الظريفة على تبديد المآسي التي تعانيها "سابين". وعندما وصلا إلى الـ"جيم" مع الغروب، كانت "سابين" قد عادت إلى الديناميكية الخاصة لمراسلة بإحدى كبرى الصحف اليومية.

وفي ضوء المساء، كان السيرك الكبير يتلألأ في هدوء. ولا سائح في هذه اللحظة، لكن في المقاهي الصغيرة المحيطة بالمدينة، كان بعض السكان جالسين على الكراسي.

صاح "روبير" متعجبا وهو ينزل من السيارة:

– ثلاثون ألف مكان شيء يدعو للدهشة!

أجابت "سابين" وهي تتأمل هذا الجهاز الحجري الذي تأثرت به كثيرا فيما مضى، عندما كانت تقوم بزيارة الأماكن مع... والديها.

استعادت فجأة أحاسيسها- عندما كانت فتاة صغيرة- فضولها للقصة التي كانوا يحكونها لها، وإشفاقها على الشهداء المسيحيين الذين كانوا يلقون بهم إلى الوحوش في الهوة العظيمة الواضحة...

– هل تريدان مصابيح رومانية؟

فجأة ظهر أحد الباعة، لا تعرف من أين ظهر أمامهما، حاملا سلة في حزام وبعضا من الآثار المزيفة.

– لا.. شكرا.

– إذن لست من السياح؟

– لا.

هكذا أجابت مبتسمة.

– إذن في إمكاني أن أريك أشياء جميلة: مصابيح، وتماثيل.

لقد صعد ذلك إلينا بعد السيول. لقد عثرنا على أشياء كثيرة، لكن هذا ليس للأجانب.

– لقد كونت صداقات.

هكذا أبدى "روبير" ملاحظته مبتسما وأردف:

– لم أكن أعلم أنك تجيدين التحدث بالعربية.

– لقد قضيت خمس سنوات في "تونس" أثناء طفولتي وكنت ألعب مع كل أطفال الحي. فتعلمتها دون أن أشعر بذلك.

في هذه اللحظة، ركنت سيارة سوداء تابعة للسلك الدبلوماسي، خلف الأسوار المحيطة بالمدرج. إنه "جوليان". تعتمت السماء في دقيقة. وها هي "سابين" قد شحبت. لقد تحققت- أمام زوجها- من معنى وجود الملحق الصحفي بجوارها.

تقدم "جوليان" نحوهما. قال:

– لقد عثرنا على العاشقين! ها هي مصادفات السياسة تمنح فلتات رائعة!

تمتم "روبير":

– إنه مجنون تماما. لم أتوقع أنه يجرؤ...

وفي الواقع ليس هناك ما هو مثير للدهشة، مثل هذه المداعبة المليئة بالشك الصادرة من فم أحد الدبلوماسيين الفرنسيين اللامعين.

همست "سابين":

– أنا لا أرغب في احتجازك بالقرب مني يا "روبير" من أجل موعدك.

قال الشاب معترضا:

– لا أستطيع تركك بمفردك مع هذا المعتوه العجيب.

أكدت له "سابين":

– اطمئن، سأحسن التصرف، كما أني متمسكة بالتوجه إلى باعة القرية لشراء بعض الأشياء القديمة.

– ستتوقفين عند "جابيه" أم أعلى من ذلك؟

– سوف أبيت في "جابيه". لي حجرة في فندق "الواحة".

انحنى "روبير" أمام "جوليان" قائلا:

– إلى اللقاء يا سيدي. إني على موعد، ولي أمل في أن نلتقي جميعا هذا المساء في "جابيه"، هكذا أعتقد.

قال "جوليان" في فتور:

– بلا شك، هذا إن لم تصادفنا مواقف تمنع ذلك...

وقفت "سابين" تتحدث مع البائع وكان المتحدث الثالث يفهم اللغة جيدا فتدخل بدوره.

– نود الذهاب إلى منزلك.

أجاب البائع مبتسما:

– اتبعاني، إني واثق بأنكما سوف تسران.

اعترضت "سابين":

– من جانبي أنا لا أرغب في شراء شيء.

حينئذ تدخل "جوليان" ممسكا بذراعها وأردف:

– هيا يا عزيزتي، إني واثق بأنك سوف تبتهجين عند حصولك على

آخر هدية.

تقدمهما البائع. لا شك في أنه اعتقد أن "سابين" و"جوليان" عروسان. وبما أنهما يجيدان التحدث بلغته، فهما مشتريان متميزان.

– آسف لأني عملت على طرد رفيق طريقك الجذاب، لماذا لم تخبريني بأنك لن ترحلي بمفردك؟ على الأقل كنت حينئذ سأشعر بالارتياح يا عزيزتي!

كانت "سابين" تتبع خطوات "جوليان" السريعة. ها هي استعادت لأول مرة– بعد فترة طويلة– الخطوة التي يسهل عليها القيام بها.

"هذا يثبت أننا خلقنا لكي نحيا معا". هكذا كان قد أشار "جوليان". "جوليان" السعيد، المرح العطوف.

– لقد سبق أن كلمتني كثيرا عن "تونس"، وخاصة عن هذا المدرج، ها هي الأحداث تتم، وها نحن معا أمامه! يا لحسن الحظ، خسارة لأن الظروف تختلف عما كنت أتوقع!

ولجآ إلى فناء صغير حيث توجد بعض الدجاجات. وفي قفص على الأرض ثلاثة من الأرانب تلتهم الحشائش. إلى أي مدى سيدفع "جوليان" بهذه اللعبة الشرسة؟ مرة أخرى شعرت "سابين" بأنها ترغب– عند ملامسة هذا الجسم العضلي لها– في أن تكون في حماه، أن يلاطفها هذا الرجل الذي أحبته.

غير أنه كان يبدو غير مبال بهذا التقارب الذي– مع ذلك– يذكره هو ذاته بلحظات سعيدة، ومن بعدها لا تفاهم ولا مصالحة. وكل ذلك لأنه قد ولدت ذات يوم فتاة في "جفصة". ومتابطا ذراعها– مثل ثنائي سعيد– دخلا إلى المنزل من باب منخفض ألزمهما إحناء الرأس.

الفصل الرابع

الحجرة التي دخلا إليها صغيرة ومظلمة. وهي تطل على حجرة أخرى فسيحة، يجلس فيها– على شكل دائرة– صغار ونسوة– يتطلعون في

فضول وصمت إلى الوافدين الجديدين. لا شك في أن الأسرة قد تلقت أمرا بالا تزعج العمليات التجارية المتوالية، طوال النهار، أثناء الموسم السياحي.

وكان ضيق المكان يعمل على اقتراب "جوليان" و"سابين" من بعضهما، تاركين للبائع المسافة الكافية لفتح وإعادة غلق الأدراج الواسعة، الموجودة في خزينتين. كانتا متعارضتين مع ديكور المكان التونسي، مع هذه الجدران المطلية بالجير والموائد المنخفضة والأرفف المحفورة في الجدران.

وكان يسود المكان مناخ عجيب من المودة بين الزائرين والبائع الذي يقدم إليهما المجوهرات الذهبية والمشغولات النحاسية والأطباق ومصابيح الزيت المزدانة بمشاهد أسطورية. وكانت رائحة الصمغ المحترق تنبعث في هذا المكان مضيفة غرابة أخرى إلى هذا المناخ، وهي عادة "لطرد الحظ السيئ".

كانت "سابين" صامتة، إذ كانت مسرورة لوجود "جوليان" في هذه الأماكن. استسلمت للأحلام، وقد ساعدها هذا الضوء الخافت على ذلك. كما أنها أعجبت بحجر مجوف بلون الزمرد، مفاجأة عجيبة، تثبت أن البائع يجيد معرفة الزبون الذي لا يستطيع أن يخدعه.

تقدم "جوليان" نحو الباب مصطحبا "سابين" التي كان يحوط خصرها بذراعه. ثم رفع الحجر المحفور إلى النور....

– به عيب...

رفع البائع رأسه في إباء معترضا:

– كلها بها عيوب!

– مع كل.. أرغب– مع ذلك– في التأكد من أنه ليس به صدع من هنا على اليسار...

استعاد البائع القطعة بين أصابعه، ووضعها بحرص على المنضدة، وأخرج من جيبه العجينة السوداء التي تسمح باختبار الحجر وذلك بإعطاء البصمة.

قال "جوليان" معلقا عندما عاد إلى الباب لكي يفحص الشمع في الضوء:

– إنه رسول الآلهة: "مركير" أي "عطارد". إن أجنحته عند القدمين

رائعة!!

قال البائع وكان لا ينبغي أن يمتلك مثل هذه القطع الخاصة بالدولة في أدراجه:

– إنها قطعة من المتحف.

أردف "جوليان":

– سآخذها.

وقبل السعر الذي طلبه البائع لأنه– لا شك في ذلك– أدرك أن البائع طالبه بآخر سعر. حينئذ كان لا داعي للمساومة.

سأل "جوليان" "سابين":

– ألا ترغبين في اقتناء مصباح بالزيت أو إحدى العملات أو إحدى هذه الزهريات الجميلة؟

تدخل حينئذ البائع:

– أنا الذي سوف أقدمها هدية.

وإذا باليد السمراء تختار كاسا خفيفا ومده إلى "سابين" التي قبلته متأثرة. وها هي حركة البائع قد أبطلت نية "جوليان" الشريرة، وحولت هذا الاقتراح المقيت إلى تقدمة!!

لا شك في أن "جوليان" يعرف من هي السيدة التي سوف يهديها هذه الزمردة... لقد اكتشفت أنها– أثناء عدم بصيرتها– لم تتوقع قط أن "جوليان" يستطيع أن يحب فتاة غيرها. كما أنها عاشت غبية، مدعية! لكن مشاغلها الكثيرة عملت على حمايتها، خلال عامين من فكرة قد لا تحتمل أكثر من غيرها، ولكن كان لابد من أن تكون حقيقة من الآن فصاعدا.

وإذا بالغيرة والثورة– بطريقة شاذة– تجعلان منها امرأة أخرى. تقدمت نحو البائع وأعلنت:

– الآن، علي أن أختار. إني أبحث عن قطعة ذهبية. إنها لأحد هواة الجمع المتميزين.

في الحال بدت قشعريرة على ملامح "جوليان". لقد قطب حاجبيه.

لا شك في أنه كان لا يتوقع مثل هذا الرد، وهذا الاعتراض غير المنتظر.

أجابها البائع:

– انتظري لحظة. القطع الذهبية في حجرتي.

وتوجه إلى الحجرة الأخرى، وكانت الأسرة مستمرة في النظر إلى هذا الثنائي– الذي يشكل زبونين متميزين– بمزيد من التعاطف. كل العيون السوداء اللامعة اتجهت نحو "سابين ريفيير" المراسلة الخاصة والصحفية.

ابتسمت هي أيضا إلى أصغر السيدات سنا، ولابد أن تكون الأم للصغار الأربعة. أبدت هذه الأخيرة إشارة ودية، لمست وجهها البيضاوي وأخيرا أردفت:

– يبدو أنك تونسية إنك جميلة جدا.

– شكرا.

هكذا أجابت "سابين".

أضاف "جوليان":

– حقا إن أجدادك الإسبان منحوك نظرتهم، لكنهم أيضا عملوا على أن تجري في... عروقك دماء حارة.

هكذا أضاف ساخرا.

"فتاة صغيرة في ذلك اليوم في "جفصة".

أخذت الغرفة تدور حول "سابين". بحثت عن شيء تستند إليه، اتجهت إلى منضدة، وكادت تقلب صينية، فتقدم "جوليان" بسرعة بدوره، وسألها وقد بدا عليه الضيق:

– هل حدث لك ما يزعجك؟ ماذا بك؟

– لا.. لا... كنت أرغب في مشاهدة هذا الصندوق الصغير.

وأخذت تتفحص علبة من الذهب مرصعة بالأحجار الدقيقة.

أعلن "جوليان":

– إنها علبة حبوب من القرن الثامن عشر. ولا علاقة لها بالآثار الرومانية، ترى أي مصادفة أوجدتها هنا؟

وعاد البائع حاملا قطعتين من الذهب صغيرتين، لكن ثقيلتين وكان

لم يسبق لأحد أن لمسهما.

إن ثمن مثل هذه الحلي سوف يثقل على ميزانية الصحفية، وهي بالتأكيد متواضعة، لكنها قد تفضل الجوع على أنها تساوم. اختارت الأجمل.

وبعد دقائق، غادرا مغارة "علي بابا" وقد قام الجميع بتحيتهما وها هو المساء قد أقبل والشمس قد غربت.

سألها "جوليان":

– ستجدين الراكب المفضل لديك في مكان ما بلا شك؟

صاحت "سابين" في خفة:

– آه! لو لم يكن إلا هو! لا، لكي يعجبني لابد من أن تكون له بعض الشخصية. لست أدري أمغامرا هو أم أنه طيار على أحد الخطوط الجوية.

استطرد "جوليان" ساخرا:

– من هواة جمع الأشياء القديمة!

– الواحد لا يمنح الآخر وربما الثلاثة معا! كما لاحظت حاليا دمي الإسباني.

قال:

– أنا لا أرغب في مضايقتك أكثر من ذلك. أتعشم أن قطعة الذهب تعجب من ستصل إليه.

– على أي حال.. إني أرجو ذلك بان تسر المرسل إليها.

صاح "جوليان" متظاهرا بالمرح:

– شكرا من أجلها! ساخبرها بذلك.

دخلت إلى السيارة 404 وقد تحطم قلبها لكلمات زوجها الأخيرة. زوجها... وا أسفاه ليس ما يثبت أنه سيعود إليها ذات يوم! وهي.. ما الذي فعلته؟ لقد رحلت مثل جانية، تحت صدمة كان ينبغي أن تعلم كيف تسيطر عليها.

وإذا بموكب حربي يصعد نحو الشمال. وأثناء ما كانت تهدئ السرعة وتتخذ اليمين لكي تترك فرصة لمرور عربات النقل الثقيلة، جاهدت لكي تلتحم بتقريرها الصحفي. لابد من الإدلاء بورقة فو.

وصولها إلى "جابيه"؛ لذلك يجب أن تحصل بسرعة على عنوان أحد المحامين التونسيين يكون على صلة بحزب المعارضة للنظام الحالي. كانت على علم أيضا بوجود شبكة اتصالات على كل منطقة جبال "ماتماتا" والجنوب الأكبر، منها تجري ممرات بين "تونس" و"ليبيا".

ثم... ضاعفت "سابين" السرعة على الطريق الذي يكاد يكون صحراويا، وهي تتامل وتراجع في ذهنها المقال الذي ستقوم بتحريره. وفي هذه الفترة من العام، كان عدد عربات السياح قليلا جدا، وهواة الإجازات "الرخيصة" هم فقط الذين يزورون متاحف المدن.

بعد قليل تجاوزت "صفاقس" المدينة الصناعية بما فيها من آبار بترول وحقول وأشجار الزيتون الممتدة على مساحات قد تبلغ آلاف الكيلو مترات المربعة. وكانت الأشجار هنا عالية متسقة، مشيرة إلى مدى رخاء المقاطعة وضواحيها، لكن كان لابد من مقاومة الرغبة في التوقف لأن الظلام قد بدأ يغمر المكان. لحسن الحظ، الطريق مستقيم تقريبا. ويكفي أن تلتفت عند ملتقى الطرق الصغيرة، الآتية من الريف والتي قد تمرر فجاة قطيعا، أو حمارا شاردا أو عربات ذات إضاءة ضعيفة تحمل عمالا زراعيين.

فجاة أصبح النسيم عليلا. ومن الزجاج المفتوح، شعرت بدخول روائح الريف إليها، بينما بعد عدة كيلو مترات، تاخذ مساحة الزراعة في التضاؤل، لان بعد ذلك، يتم الدخول إلى منطقة الجنوب الفقيرة، الصحراوية، الخالية من الناس في هذه الفترة من اليوم.

وعلى الرغم من الظلام، كانت "سابين" كفيلة بالسيطرة على تغير المناخ، وسكون الريف.

وكان الشيء الوحيد الذي قطع هذه الرحلة الرتيبة، هو فندق "الواحة" كثير الإضاءة. سعدت "سابين" حينئذ لتواجدها أخيرا أمام المبنى الكبير لكي تلحق بحجرتها بعد هذا اليوم المنهك.

كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة عندما تمكنت أخيرا من النزول إلى الصالون، بعد أن أملت مقالها إلى الجريدة.

وعلى خلاف ما كانت تعتقد، كان هناك كثير من الناس في

الصالونات. مجموعة مرحة ممن هم في إجازة، ومن هم في المرحلة الثالثة من العمر، يحاولون جاهدين القيام برقصات التانجو. كما أنهم – في ملابس رياضية– يبدون وقد عادوا إلى سن الشباب، يضحكون ويمرحون وكأنهم طلاب. وكانت "سابين" – بالقرب منهم– تجلس كئيبة وفي حال يرثى له. خجلت من نفسها؛ لذلك قبلت الرقصة التي تقدم بها رجل مسن مبتسم، رشيق أعلن عندما اتجه نحوها:

– إننا لا نتمتع بما هو ضد الشباب!

أكدت "سابين" مبتسمة:

– هذا لأنك أنت ذاتك شاب.

ثم استطردت باسمة:

– هل من في مثل سنك، مازالوا يجيدون رقصة "التانجو"؟

– بالعكس، لقد اضطررنا لأن نتعلمها لأنها أصبحت موضة!

وتقدما معا على حلقة الرقص. وكان وصول "سابين" فرصة لخلق حركة دهشة وانتعاش بين الراقصين.

قال فارس "سابين":

– إني في سن التقاعد، لقد قمت بتدريس اللغة الفرنسية طويلا في "تونس". وهأنا أعود إليها في كل عام.

– وهل كنت في "تونس" ذاتها؟

– لا. في "بيزرت" حيث أصبحت صيادا ماهرا في "جابيه" حيث عملت في الملاحة، وفي "جفصة" أيضا.

سألته "سابين" وقد اشتد توترها رغما عنها منذ أن ذكر رفيقها المدينة التي ولدت فيها بلا شك:

– وما الذي تعلمته في "جفصة"؟

قال:

– لقد تعلمت أن أنظر، تعلمت الصحراء أيضا. إن ضواحي المدينة رائعة.

قال هذا، وفي الحال رافقها إلى مائدتها وانسحب مقدما الشكر.

طلبت قليلا من الشاي بالنعناع، وتلفتت من جديد من حولها. لمحت حينئذ الملحق الصحفي الفرنسي. استغرقت فترة حتى عرفته، لأنه قد تغير: كان متعمقا في مقعد ذي مسندين، وبيده كأس من الشراب، وكان يبدو تائها.

أشارت إليه "سابين" محاولة عبثا جذب انتباهه. لم يتحرك. غادرت مائدتها– قلقة بعض الشيء– وتقدمت نحو الشاب. رفع رأسه وتأملها في حزن ثم تمتم:

– لقد وصلت؟

قالت وقد بدت مرحة:

– نعم.. منذ ساعتين، غير أنه كان لدي عمل. يبدو أنك... متعب؟

كرر في بلادة:

– متعب؟

– هيا يا "روبير" تحرك! هل أنت مريض؟

– وما شأنك بذلك؟ ليس هناك من يحبني! وإذا رحلت من هذا العالم، ليس هناك من يرثي لي أو يبكي عليّ!

جلست "سابين" بالقرب من الشاب الفرنسي، وأخذت تضحك بعد يوم منهك وبعد العديد من المؤثرات. لم يبق لها سوى القيام بدور الممرضات!!

وإذا بصوت "جورج ويندو" الحار يقول:

– ماذا فعلت بـ"روبير" المسكين؟ آه يا صديقي المسكين! إن النساء فظيعات ورهيبات!

وكان "ويندو" ممسكا بزجاجة صغيرة.

– كنت معه. أرى أنه ينبغي أن يتناول قليلا من هذا الدواء قبل الصعود إلى حجرته. إنه فعال. لقد أفرط المسكين في الشرب وهو غير معتاده.

سألت "سابين":

– كيف وصلت بهذه السرعة يا سيد "ويندو"؟

– لقد هبطت في "توزير" في الرابعة بعد الظهر. أعتقد أنك في هذه الساعة كنت قد وصلت إلى "سوس". بعد ذلك أخذت سيارة أجرة

لقطع ثمانين كيلو مترا! في مثل عمري، يجب أن أدبر قواي!

كان واقفا أمامها، وهو يمد يده إلى الفرنسي بالزجاجة المبتلة.

رفض "روبير" أن يشرب، مؤكدا أن هذا شراب سحري وأنهما يرغبان في إرغامه على تناوله، ولن يخضع لهما.

سأله "ويندو" في هدوء:

– ولو كانت الآنسة "ريفيير" هي التي تقدمه لك لتشربه؟

– "سابين". في إمكاني أن أقول "سابين" لأنها هي أيضا تناديني باسمي. إذا كانت "سابين" فارغب جدا...

ثم أعلن "ويندو":

– يا آنسة.. الأمر يخص ضحيتنا! هل ستتحركين؟

أجابت ضاحكة:

– أعطني هذا الكوب يا سيد "ويندو". إني واثقة بان "روبير" سوف يطيعني.

وإذا بالملحق الشاب يبتلع كل ما أرادا أن يعطياه.

– ليتنا ندعه يستريح قليلا الآن.

هكذا نصح "ويندو". ساعيده إلى حجرته خلال دقائق. اتعلمان أن الأحداث تتكشف؟

ثم سلم الدبلوماسي الظريف إلى المراسلة الخاصة الأخبار الأخيرة عن المؤامرة الليبية.

ولما كان التونسيون عامة ذوي خيال واسع، كان من الأفضل عدم التسرع بالإبراق بالشائعات. كانت "سابين" تفضل انتظار معلومات المحامي الذي تعاقدت معه بالتليفون والذي قد يصل بين دقيقة وأخرى، متعجلا– على الرغم من الساعة المتأخرة– منح الصحافة الدولية المعلومات اللازمة.

وفي الواقع بعد لحظات، بينما كان "ويندو" – وهو قوي البنية– يسند بيده المتينة "روبير" المسكين الذي لم يبد عليه أي تحسن منذ تناوله الجرعة السحرية، إذا بخادم يأتي لكي يخبرها بانها مطلوبة في الاستقبال.

اخترقت "سابين" الصالونات التي تفصلها الحواجز الخشبية المنحوتة

والسياجات التي من الحديد المشغول بإتقان، وتواجدت أمام رجل أسمر في الأربعين من عمره. إن مشاغل عملها أفادتها في نسيان "جوليان دي كروازو" قليلا.

أردف المحامي وهو يتركها:

– سوف تتلقين رسالة– في "غاداميس"– تمنحك الأخبار الأخيرة.

كانت "غاداميس" مدينة الحدود في جنوب "سرت" الصغيرة. لم يسبق لها النزول بمثل هذه المسافة نحو الصحراء. وكانت ترغب في معرفة هذا المنظر الريفي ذي الأحجار والرمل، والذي سبق لوالديها أن حدثاها عنها بشيء من الحنين إلى الوطن.

ثم لحقت بحجرتها مستعيدة هذه الذكريات الخطيرة. وقبل أن ترحل ستتصل بـ"تونس" لمعرفة إلى أين وصلت أبحاث "ليلى". وكان عليها أن تنام هذه الليلة أيضا مع شكوكها ومآسيها، ترى هل "جوليان" في الفندق أم أنه مازال يواصل طريقه نحو الجنوب لكي يصل إلى مقره قبل الموعد؟

وقد أنهكها التعب، نامت إثر هذا التساؤل. وكانت أحلامها صعبة ومؤثرة. وكان زوجها يظهر في كل منها. في مسرح الـ"جيم" رأت نفسها وهي تسقط في هوة الأسود بينما يقف "جوليان" وهو ينظر إليها ضاحكا. وخلطت بين الزيارة لبائع الآثار مع اللقاء بمدرس اللغة الفرنسية على حلقة الرقص، ظنت أنه يلاحقها عبر الحقول المجهولة في حين أن هذا الرجل الظريف كان يصيح بها مهددا: "لقد تعلمت أن انظر، لقد تعلمت أن أنظر!" وأخيرا، رأت للمرة المائة وجه الدكتور "فيريير" وعاشت ثانية هذا المشهد القصير والذي كان مع ذلك محددا لزيارتها:

– لقد مات كلاهما؟

– وا أسفاه.. نعم! منذ ثماني سنوات.

– والفتاة الصغيرة التي تبنياها.

استيقظت "سابين" في هذه اللحظة من الحلم وهي تبكي، كما بكت في تلك الليلة التي غادرت فيها منزل "جوليان". دخل النهار إلى الحجرة التي لم تشد ستائرها، وكانت الساعة السادسة صباحا.

أسرعت إلى النافذة. البحر أمامها هادئ وذو زرقة تامة. وفي عرضه مراكب الصيد التي تتميز بها "جابيه" تنزلق في إجلال نحو الأفق. وخلال لحظة، حلمت بأنها على كوبري إحدى هذه البواخر الشبيهة بمراكب القراصنة... لكن كان هناك "ديفيفييه" - مديرها- كان هناك الأمر بالعمل والبحث الأكثر مشقة الذي أعلنته. وكان لابد لها من أن تتخلى عن هذه الشكوك، وأن تنظر في النهاية من جديد إلى العالم المواجه لها.

أغلقت الستائر وتناولت إفطارها في حجرة الطعام الخالية. بادرها نادل المطعم وهو مقبل عليها:

- إنك مبكرة جدا. لقد بدأنا الخدمة الآن فقط.

أجابت وهي تجلس إلى إحدى الموائد:

- يجب أن أتجه إلى الجنوب. ومن الأفضل أن أصل مبكرا.

- هل ستقومين بزيارة "توزير"؟

- لا.. "غاداميس".

- بمفردك في هذا المكان البعيد؟

- أنا صحفية!

بدءا من إفصاحها هذا، استرسل الشاب في الأسئلة. أراد في الحال معرفة كل شيء وقول كل شيء. ولحسن الحظ عمل نداء هاتفي على وضع حد لهذا التبادل الذي لا يهدف إلى شيء ما. دخلت "سابين" إلى كبينة التليفون. إنها "ليلى شكري":

- لقد توفيت والدتك بعد ولادتك ببضع ساعات...

- أحقا يا "ليلى"؟ و...

- إنك تعتزمين التوجه إلى "جفصة".. أعتقد ذلك؟

- نعم.

- إذن يجب عليك الذهاب إلى المجلس البلدي، لقد أخطرتهم بذلك وسوف يمنحونك كل التفاصيل، وإذا شئت القيام ببعض المساعي...

سألتها "سابين" في خجل:

- ووالدي؟ هل لي أب؟

- أعلم جيدا- يا عزيزتي "سابين"- كم أن الانتظار صعب عندما يتواجد المرء في مثل موقفك، لكن ينبغي أن تقدمي أوراقك، الأمر يخصك بمفردك... أفهمت؟

- بالتأكيد يا "ليلى"، أفهم جيدا، وأشكرك. سوف نتقابل عندما يكون كل شيء قد تم...

أردفت المشرفة الاجتماعية في مرح...

- أرجو ذلك... لكن عن أي "كل" تتحدثين؟ هل الثورة على الأبواب؟

- لا أدري شيئا عن ذلك. إنهم مستمرون في إثارة هذه الشائعة. وعلى أي حال ستكون هناك ثورة متواضعة بالتأكيد لكن ضرورية وقهرية: إنها ثورتي!

قالت "ليلى" بشدة:

- الثورات ينبغي العمل على إنجاحها. أتمنى لك الشجاعة لا تحكمي على أحد يا "سابين". الله وحده...

حينئذ صاحت الفتاة في لهجة عرفان بالجميل:

- كنت ساهلك بدونك! إنك على حق. لا ينبغي أن نحكم.

وعادت إلى حجرة الطعام وعيناها مغرورقتان بالدموع، ثم توقفت فجأة. جلس "جوليان" إلى أمام مائدتها، وها هو يضع الزبد بعناية على الخبز الخاص بها.

قهقه ساخرا:

- ليس من أمر من الممكن أن يبدو أكثر احتمالا بالنسبة لزوج قد خدع، أليس كذلك؟ بما أنهم أحضروا لك الوجبة وأراك مشغولة، اعتقدت أنه تحسن معاونة صحفية مهتمة!

كانت "سابين" قد ارتبكت بعد سماعها هذه الأخبار التي وافتها بها "ليلى شكري"، لكنها تمتمت:

- أشكرك. لقد اعتدت أن أتناول طعامي بمفردي.

ألح "جوليان":

- ليس دائما. يثبت ذلك.. ألا يثبت ذلك هذا الجميل الأسمر.

لست أدري هل هو ممن يعملون على جمع المعلومات أو أنه طيار؟

– أيهما؟

– لا تتظاهري بالتواضع. الشخص الذي كنت تتحدثين معه في مودة في الاستقبال قبل أن تعودي إلى حجرتك. تهانيَّ لك. إنه شاب جميل!

كادت "سابين" تنطلق في الضحك وتوضح له أنه محام في "جابيه"، لكنها امتنعت وأكملت المسرحية. سألته:

– هل تجده حقا جميلا؟ عني، أنا أجده– خاصة– ذكيا...

ختم "چوليان" كلامه بقوله:

– إذن.. له كل الصفات. ثم نهض.

قالت على أمل أن تكون الكلمة الأخيرة لها:

– هل تجد تسليتك في الهزء بعشاقي؟

– لقد جمعتنا المصادفة. وبما أني أسعى إلى الحصول على أدق المعلومات عن طباع النساء، أجدك مثالا شائقا، مرتبكا، مثيرا!

ولما لم يتعجل الانصراف ومكث في تراخ مستندا إلى المقعد الذي كان قد أعاده إلى مكانه. ألقت إليه نظرة ملؤها الغضب. قال ساخرا:

– هل يضايقك وجودي؟

أجابت وفي صوتها نبرة تأثر كافية لتكذيب ما تدلي به:

– وجودك لا يهمني.

أردف:

– إذن.. إنك تتمتعين بأسلوب خاص حتى تكوني غير مبالية. هل أطمع في الحصول على متعة مقابلتك مرة أخرى في "غاداميس"؟ لقد أفادني الخادم بأنك سوف تتوجهين إليها في "مهمة سرية".

ابتسمت على الرغم منها.. ألح:

– وهل هذه المهمة السرية تخص الأسمر الجميل الذي كان معك مساء أمس؟

أبدت "سابين" حركة تعبر عن أن صبرها قد نفد. استطردت بلا خجل:

– من الممكن أن ننزل معا.

صاح "چوليان":

– إذن، طريق السلامة!

قاومت لكي تأكل الخبز الذي أعده "چوليان". يا لها من ظروف عجيبة تلك التي أعادتها إلى السعادة الماضية! ومع ذلك. لا يبدو على "چوليان" أنه تأثر لفراقهما. لقد ظل الرجل الأنيق سيد نفسه، الذي كانت تعجب به كثيرا وتفخر بأنها سوف تصبح زوجته.

ثم خجلت لاهتماماتها الأنانية هذه. تخيلت وجه والدتها الذي لا تعرفه. عملت على منحه ملامح شبيهة بملامحها. من هي السيدة التي توفيت في "جفصة" وهي تضع طفلة صغيرة للعالم؟

أحست بحب يحتويها. إذن هي لم تهمل، لكنها حصلت على من يتلقاها للضرورة... الظروف.. الوالد.

وطول الطريق إلى "غاداميس" راودتها مغامرة هذه الأم المجهولة، المغامرة الرهيبة. ترى أي مأساة قادتها لكي تموت وحيدة في مستشفى؟! في تأثر، تحققت من أن هذه السيدة الشابة هي أختها التي تكبرها بعدة سنوات وفجاة ربطتها صلة تضامن كبيرة بتلك التي لن تعرفها أبدا، من تجهل حتى الآن أصلها، ولكن كانت على استعداد لأن تحبها إلى درجة الدفاع عن ذكراها حتى ضد "چوليان". ولقد بدأ المنظر الريفي يزداد وحشية كلما تعمق المرء نحو الصحراء. كانت الجبال التي تحتها التآكل، والأكواخ المعزولة، والأرض البور المغطاة بالعشب الضعيف الأخضر الفاتح تكون ديكورا يجمع بين الجمال والحزن. لا وجود لإنسان على هذه الطرقات. ولحسن الحظ، كانت السيارة 404 في حالة جيدة.

عند اختراقها هذا المنظر الساكن، وجدت "سابين" صعوبة في تصديق أن أمرا ما ذا خطورة قد يحدث. ومن جانب آخر، بدءا من هذه الكميات الهائلة من الأحجار والرمال والأحجار الجيرية التي يميل لونها أحيانا إلى البرتقالي الضارب في الغالب إلى اللون العاجي، ليس هناك ما يبدو قادرا على أن يصبح خطيرا في مقياس الرجال؛ لأن الرجال كانوا قد تضاءلوا إلى مقاس الأقزام على المدقات في أعمالهم كحشرات معوزة.

"وأنا ذاتي حشرة، هكذا حدثت نفسها- مع أحزاني وفضولي كصحفية وعملي كمتفرجة".

"اجعلي لمقالاتك لونا وجمالا. إن القراء في حاجة إلى الشمس والأخبار المثيرة" هكذا كان قد أوصاها مديرها. هل كانت مهنتها تتطلب ذلك، وهي من كانت تعتقد أنها تحبها، والتي كانت تعتبر أنها مشاعر تتلخص في إثارة جمهور لا يعرف الفضول؟

أبعدت عنها الإحباط الذي يهدد بالسيطرة عليها. حقا، إن الوقت غير مناسب لذلك. بل كان عليها أن تنتبه إلى تعرجات الطريق وإلى العقبات التي بدأت تغطي المدق. هنا الرياح تهب قوية حتى تنقل ليس الغبار فقط إنما الحصى أيضا.

ما الذي يحدث لو أن "سابين" تأخرت في العودة- قبل ذلك بعامين- وإذا كانت بذلك تجنبت مقابلة الدكتور "فيربير"؟ هل كان "جوليان" سيشعر بالملل نحوها؟ هل كان سيعود إلى الأعيبه وهو أعزب ساحر، كما كان يبدو أنه يقوم بذلك منذ رحيلها؟

*****

وفجأة توقفت كل هذه الاستجوابات. لقد توقفت السيارة- التي ظلت وفية حتى ذلك الحين- في منتصف الطريق. استعادت "سابين" رباطة جاشها وتحققت أولا مما كانت قد تعلمت معرفته. وا أسفاه، كل شيء كان في مكانه وفي المستوى السطحي للمحرك.

حتى تتجنب الخوف بلا داع في هذه الوحدة التي قد تطول- إن لم تصل إلى الإصلاح- قررت أن تستريح لحظة على قارعة الطريق، وأن تدخن سيجارة وتتناول ساندويتش.

كان السكون مخيما على المكان. صمت رهيب ولا حتى صرخة طائر. كانت المسافة تبعد أكثر من ستة كيلو مترات عن أقرب كوخ. لا شك في أنه كان من الحذر أن تستمع إلى نصائح "جورج ويندو" الذي صاح في الليلة السابقة:

- إذا كان عليك القيام بهذه الرحلة فارحلي بسيارتين في نفس الوقت الذي ينصرف فيه "كروازو". بذلك إذا تعطلت سيارة أحدكما...

وكانت "سابين" قد فكرت وقتئذ لو أن العطل تم بينها وبين "جوليان" بحيث يصبح التعاون بينهما مستحيلا! جلست على صخرة ذات مسند طبيعي، محاولة تأخير اللحظة التي ستعود فيها إلى المحرك اللغزي. وها هي بدأت تشك في أن مثل هذا العطل الفجائي يعني حدثا جادا.

ثم- بعد فحص دام ساعة من الزمن، وفي الوقت الذي عادت فيه إلى الحقيقة- بدا شبح صغير أعلى الهضبة العليا. سمعت صوت نداء، وأجابت باللغة العربية. وإذا بالقزم ينزل في خطى سريعة رشيقة، ويقترب وعلى محياه ابتسامة مشرقة.

إن هذا الرفيق الظريف لا يتجاوز الثامنة من عمره. كان على استعداد للتعاون معها، لكنه- من البديهي- لا يجيد شيئا في الميكانيكا.

- هل أنت بمفردك؟

- نعم.. إني على موعد في "غاداميس".

قال الصبي:

- لم أذهب إليها قط. إنها بعيدة جدا. أليس كذلك؟

- إلى حد ما.

- وسوف تنامين في سيارتك؟ هل هي مكسورة؟

- إني أسعى إلى التوجه إلى القرية. هل أنت تسكن فيها؟

- لا. إني أذهب إلى المدرسة كل يوم.

- كم من الكيلو مترات تقطعها كل يوم؟

- خمسة. لكني أتخذ طريق الهضبة لأنه أقصر.

- إذن لو أعطيتك كلمة لمعلمك أفي إمكانك أن تعطيها له لكي يقرأها؟

- بالتأكيد.

- وهل معلمك يمتلك سيارة؟

- لا. لكن والدي عنده حصان.

ثم بعد دقائق، توجه التلميذ- تلميذ الصحراء- نحو مدرسته متخذا

الطريق المختصر. وقفت "سابين" تنتظر، لكنها كانت واثقة بانها سوف تجد من ينجدها.

وفي تفكير عن بيان قد يقدره مديرها، تمنت ألا يحدث شيء على الحدود الليبية قبل أن تعود إلى مزاولة عملها كمقررة صحفية. لأنها في هذا الوادي وهو من أكثر رمال العالم نعومة لن تتمكن من بلوغه.

الفصل الخامس

وصل الفارس بعد مرور ساعة زمن. وهو شاب فارع، نحيف، أحد سكان الصحراء المثاليين الذين ليست لهم صفات العرب في إفريقيا الشمالية. وجميعهم متشابهون، يعيشون في هذا المحيط الرملي الشاسع الذي يدعى الصحراء.

وكان يرافق الفارس حصان آخر معد للركوب. قام الشاب بتحية "سابين" عن بعد. احترمت الفتاة هذا النوع من البروتوكول وشكرته.

تمكنا معا من وضع السيارة 404 على جانب الطريق. أخرجت أمتعتها من سيارتها واقتربت من الحصان الثاني. ولما كانت ترتدي بنطلونا، لم تجد صعوبة في امتطاء الجواد، بينما الطفل الصغير يراقبها مسرورا.

عندما استقرت واستعدت للرحيل ألقت نظرة على هذا المنظر الريفي ذي اللونين الذهبي والأحمر، وكان أشبه بديكور فيلم خيالي. كان هناك سياح عديدون يضحون من أجل التواجد في مثل هذه الصحبة وفي هذه الأماكن وفي هذه الساعة من النهار، عندما تلقي الشمس بأشعتها الحمراء.

بعد عدة مئات من الأمتار اجتازها الشاب على جواده. أعلن في ثبات:

– أعلم من أنت.

نظرت إليه "سابين" دهشة وقالت:

– هل أنت متأكد؟!

– كانت لدينا مقابلة هذا المساء في "غاداميس".

– كيف تعلم ذلك؟

– إنه بسبب السيارة.

قال هذا وأخرج من جيب قميصه بطاقة صغيرة. شدت "سابين" لجام جوادها واقتربت، وكانا قد قررا التقدم. أمسكت بالورقة فوجدت أنه مدون عليها ماركة ورقم سيارتها.

صاحت "سابين" في الحال:

– يا لها من مصادفة عجيبة! إذن أنت تدعى "فيصل"؟

– نعم، كان ينبغي أن أتوجه إلى "غاداميس"، لكن هذا أفضل.

– في الواقع، هكذا من الممكن تجنب طول المسافة.

أردف معترضا:

– آه! ليس هذا المقصود! لكن أولا يجب أن تتناولي طعاما وأن تستريحي، لأن أحد الأصدقاء سيحضر لك سيارة.

– وسيارتي؟ أنا لا أستطيع تركها هناك.

– سيأتون لأخذها فيما بعد. يجب ألا تتأخري عن العمل. مصادفة غريبة... يبدو على هذا الفلاح الشاب أنه على يقين بخبر جيد.

قالت له "سابين" مبتسمة:

– هذا لطف منك. لم أعد بمفردي هنا، كما لم يحدث لي منذ أن أتيت إلى "تونس".

قال الشاب في بساطة:

– إننا هنا متفقون على ما سوف يحدث. غير أن الأوامر قد تغيرت يجب أن تذهبي إلى "جفصة".

صاحت:

– إلى "جفصة"؟ لماذا؟

كرر:

– إنها الأوامر، لأن الأمور سوف تبدأ من "جفصة"...

– لكن ماذا يحدث بالضبط؟ حتى الآن لم يرغب أحد في إلقاء ضوء على الموقف ولا أن يفسر لي ما سوف يحدث ولا حتى المحامي في "جابيه"، هو أيضا– على ما يبدو– لا يعلم شيئا بالتحديد.

– لانه كان لا يستطيع الإدلاء باي شيء. ومع كل لقد تغيرت الأوامر صباح اليوم، لان ذويهم سيحضرون عن طريق "توزير" أما ذوونا فقد تواجدوا هناك قبل الآن.

– هل يوجد تليفون في القرية؟

– نعم. عند المعلم. لكن لا يستطيع أن يتصل، لأن التليفون مراقب.

قال هذا بنفس النبرة التي تبدو غير مبالية، لكن "سابين" فهمت أنها– إذا كانت قد وافتها فرصة الحصول على من يمنحها معلومات جيدة، فهي أيضا أسيرتهم.

– وهل ساتمكن من الرحيل بسرعة؟

– الوقت اللازم للوصول إلى "غاداميس".. سوف يعمل السائق على توصيلك باسرع ما يمكن، لكن يجب أن تعدنا بالا تفصحي باي شيء قبل مساء غد.

– كيف أتحدث بما لا أعرفه؟

– هذا أفضل لك.

كانها– فجاة– غيرت المجال. إنها وسط عالم آخر، ها هو الشاب صامت الآن. لقد أخبرها بكل ما كان مكلفا بان يقوله. تقدمت بالقرب منه، لكنهما عادا غريبين من جديد. فكرت مبتسمة في اللافتات الإعلانية التي كانت تصادفها أحيانا على الجدران في "باريس" والتي تدعو السياح إلى المجيء لتذوق جمال الصحراء ومتعتها، إذ الصحراء أخاذه فعلا.

كان هناك نحو عشرين منزلا مسكونا في القرية ومثلها متروكة. ومع ذلك كانت المدرسة تضم أكثر من مائة تلميذ وافدين من كل أرجاء الهضاب. مازالت تسكن أسرة أو أسرتان. وبذلك كان الصغار يقطعون عدة كيلو مترات على أقدامهم لكي يتلقوا العلم.

أعلن الفارس:

– ستتناولين الطعام عندي.

فكرت "سابين" فجاة في "مركير" أي "عطارد" رسول آلهة الرومان

لكن "فيصل" لم يكن في مثل زينته بل أقل، ليس له أجنحة تصل إلى القدمين، مثل صورة الملك الذي على الحجر المجوف الذي اشتراه "جوليان"، لكنه رسول الصحراء، وكلماته أوامر، ربما يرجع ذلك أيضا إلى القدر، طالما سيعيدها إلى "جفصة". كم كانت اهتماماتها بعيدة وخفيفة أثناء هذه الرحلة غير المتوقعة!

غير أن "سابين" كانت تشعر كانها تجددت على الرغم من حرارة الجو وقيادة السيارة خلال ساعات. قال الشاب:

– ها هي أمي.

رحبت السيدتان كل منهما بالأخرى. وكان من بواعث الرضا عند أولئك الفلاحين، هو أن هذه الأجنبية تتكلم بلغتهم، وإن كانوا– عامة– دهشين لغزو السياح لعالمهم المغلق.

أحضروا لها بلحا ولبن ماعز مع شاي أحمر قوي، ثم تركوها بمفردها في الحجرة. كانت تسمع في الحجرة المجاورة مؤامرات. العديد من الأصوات الأنثوية مختلطة. لكن مع ذلك لم تظهر واحدة منهن. بل كان "فيصل" هو الذي أتى وجلس بالقرب منها بعد ساعة. وضع إبريق الشاي على المائدة بعد أن صب لنفسه. وها هو الآن يرتشف مشروبه الخطير، القوي، المنشط، الذي يحول دون الإحساس بالجوع أو العطش طوال ساعات حتى مع حرارة الطقس الشديدة.

ثم بعد مرور ساعة لم تسمع "سابين" خلالها أقل صوت. نهض معلنا:

– ها هو صديقي. الآن في إمكانكما العودة معا.

خرج من المنزل، ثم سمع صوت محرك السيارة. لم تجرؤ "سابين" على الحركة. وبعد بضع دقائق دخل رجل في الخمسين من عمره بصحبة "فيصل".

قال هذا الأخير:

– إن كل شيء قد أعد. لقد وضعت أمتعتك في حقيبة السيارة. لديكما أيضا ماء وزيتون وخبز. من يدري، قد يحدث عطل آخر.

ولأول مرة منذ لقائهما، انصرف ضاحكا. ودون أن تلح كثيرا.

شكرت وجلست في السيارة على الأريكة الخلفية كما بدا لها أنها رغبتهم، وانطلق السائق.

قال لها مبديا ابتسامة ثقة ومودة:

– إلى الغد، في "جفصة"!

– إلى الغد.

هكذا كررت بطريقة آلية.

ثم تبريرا لطاعتها لاحتمالات من يمنحونها المعلومات، راودتها احتمالات ممكنة وهي: إذا– كان العكس– تلخصت الحركة في العمل على استبعاد الصحفيين عن مسرح العمليات. احترمت صمت السائق طوال ساعتين. إنه شخص صموت، ذو ملامح قاسية، يرتدي قميصا ذا لون "كاكي" وبنطلونا من الجينز، وكان له– في هذا الملبس الحضري– مظهر فرسان القبائل الكبرى. كان يقود بسرعة، ربما بعنف بعض الشيء، لكنه– على ما يبدو– على دراية بالطرق الفرعية التي اتخذها منذ الرحيل، تاركا الشوارع المرصوفة.

حاولت "سابين" فتح حوار:

– ألا تذهب إلى "جابيه"؟

أجاب:

– يوجد طريق أقصر.

– هل تذهب كثيرا إلى "جفصة"؟

– أنا من المنطقة، لكن عملي في "غادامس". لدي تجارة هناك، وكثيرا ما أعود إلى منزل والدي.

– ربما ينبغي أن أتصل بـ"جفصة" لكي أحجز...

– في هذه الفترة، توجد دائما حجرات في "جوجورتا بالاس".

وكانت هذه الحوارات المختصرة تشبه كثيرا الحكم بعدم قبول الدعوى. وللمرة الوحيدة، لم يعمل استخدامها للغة العربية على إرخاء محدثها.

"وكأنه خادم الفندق في "جابيه". إنه يخشى أن أكون جاسوسة ولا يثق بي" هكذا ختمت أفكارها، وتراجعت عن الدفع بالحديث إلى أكثر

من ذلك.

تعمقت في داخل السيارة الـ D. S. وهي في حالة جيدة، وأخيرا نامت. وعندما استيقظت لاحظت أن السيارة قطعت مسافة طويلة وشعرت بأنها بحالة جيدة لمواجهة الموقف الجديد. قررت أن تتصل بـ"باريس" فور وصولها إلى الفندق، وتستمتع بقدرتها– منذ صباح اليوم التالي– على التوجه إلى مجلس المدينة لكي تسمع هناك– من فم أحد الموظفين المجهولين– حكم القدر.

هل واصل "جوليان" طريقه حتى الحدود؟ كان يعتبر جاسوسا في المجال السياسي. ربما يكون هو ذاته قد عاد في الوقت المناسب إلى "جفصة"؟

وكانت تتمنى ذلك جزئيا. فهي ترغب– دون أن تعترف بذلك– في أن تراه ثانية. لم يتمكنا من التقابل على هذه الطرق الملتوية. وكانت "سابين" في الحقيقة – على الرغم من غرابة هذا الموقف– لا تشعر بأي خوف من تواجدها مع هذا المجهول. كما كان توجهها إلى عملها في المكان الذي تناديه فيه أعمال أخرى ملحة، يبدو لها كمصادفة نابعة من العناية الإلهية، تكاد تكون سحرية، وتمنحها ثقة بنفسها.

"لقد كنت دائما" ساذجة إلى حد ما– هكذا فكرت– لكن من يدري؟". بعد قليل أعلن السائق:

– سنصل إلى الطريق القومي. بدءا من هنا الطريق الأقل مسافة، وسنصل بعد قليل بمشيئة الله.

لكن– ما إن قطعا مسافة عشرة كيلو مترات– حدث أن السيارة توقفت فجأة خلف عشرات المركبات الأخرى التي سبق أن توقفت بسبب الحواجز التي وضعتها الشرطة. وعند وصول السيارة D. S تقدم نحوهما ضابطا شرطة ممسكين بالسلاح. في حين أن الآخرين كانوا يشيرون إلى السيارات الأخرى بالتحرك، وهذا بإشارات بالذراع. تحققت "سابين" – خلال ثانية– من أنها تسافر مع شخص مؤذ.

ساله أحد الضباط:

– لماذا هذه السيدة معك؟

تدخلت "سابين" لكي توضح الأمر، على الأقل جزئيا: إنها تعرضت لعطل في السيارة وسرت عندما وجدت من ينقذها... ثم تقدم الشرطي الثاني- وهو في رتبة أكبر- لمس "كابه" ومتوجها باللغة الفرنسية وضح:

- هذه الحواجز كانت بسببك يا آنسة. السفارة الفرنسية تبحث عنك. لقد عثر بعض الأصدقاء على سيارتك المتروكة.

- أصدقاء؟

- إنك الآنسة "دي ريفيير"؟

- بالضبط.

- للعلم، لقد اتصل السفير بنفسه هاتفيا بوزير الداخلية، لكننا كنا في حيرة إذ قيل لنا إنك متجهة نحو "غاداميس" حينئذ أسرع السائق بالغمز بعينيه إليها من خلال مرآة السيارة. لا شك في أنه كان يخشى من أنها قد تكشف عن أسباب تغييرها للاتجاه الذي كانت تقصده.

- هذا لأني فكرت في أني سوف أتمكن من استئجار سيارة جيدة هناك. لا شك في أن عدد السياح بدأ يتزايد في منطقة الواحات. ثم إني حريصة على ألا أنزل بمفردي.

ألح رجل الشرطة:

- لكنك صحفية وتقومين بعمل تقرير صحفي. أليس كذلك؟

أجابت "سابين":

- نعم، وهو بحث عن المرأة التونسية.

وأخيرا قام الشرطي بالإشارة التي كان السائق والفتاة ينتظرانها بفارغ الصبر، ومنحهما التصريح بالمرور.

تمتمت "سابين":

- أنا لا أدرك أي فكرة عن الطريقة التي أبلغت بها السفارة... على ألا...

سألها السائق وقد ساورته الشكوك:

- على ألا؟

- أن يكون هناك دبلوماسي آخر كان عليه أن يتجه هو أيضا إلى "غاداميس". لابد أنه هناك الآن هذا بالإضافة إلى...

كانت تقصد "چوليان". ترى هل هو الذي أعطى هذا الإنذار، وهو الذي قلق بشأنها؟ لكن هل هو لم يقم بالمثل من أجل "چورج وبندو" أو حتى "روبير" الرومانسي؟

لكن كان عليها أن تبعد عنها كل هذه الإلماعات التي يدفعها حبها لـ"چوليان" إلى القيام بها. إن شراءه للحجر الأجوف يفسر الأمر: "چوليان" متعلق بغيرها. ثم في لمح البصر تطلعت نحو النجاح، في أن تصبح صحفية لامعة. لكن هل هي كفيلة بالقيام بالتحقيق على أكمل وجه؟ هل هي حقا قادرة على التركيز على الموقف السياسي في البلد، منذ أن رأت زوجها ثانية ومنذ أن قررت معرفة ومواجهة لغز مولدها؟

انتهت هذه الاكتشافات بأن أصابتها بالإحباط. إن فكرة تعاطف "چوليان" مع إنسانة أخرى قد أضرت بها وتغلبت عليها الرغبة في التواجد من جديد بين ذراعيه، أن تحصل على ملاطفته لها، فارتبكت. شعرت أيضا بأنها تتمنى العودة حتى إلى ثوراته وسخريته...

أصبحت هذه هي حاجتها إلى "چوليان" وبذلك فقدت الشجاعة اللازمة لمواجهة الانفصال. لن يكون الطريق أطول من ذلك. بعد قليل، سوف ترتفع أبخرة المساء على السهول الشاسعة المغطاة بالعشب الأخضر. ثم- فجأة- سيطر عليها السلام المحيط بها النابع من سحر الصحراء الذي يقدم إلى النظر عظمة الطبيعة ويعيد الحقائق الإنسانية إلى مكانها.

ومن بعيد كان قطيع من المعز الأسود، يرسم- كما بحبر شيني- أشكالا هندسية على بساط الأرض البور. بعيدا عن ذلك، كانت خيمة منخفضة تشير إلى إقامة أسرة من أهل البدو الرحالة. قطيع خراف وجواد أو جوادان تمر بالقرب منها. فجأة نطق السائق:

- البوس!

انتفضت "سابين". لا شك أنه لمح في مرآة السيارة ما بدا على نظرة رفيقة طريقه من إعجاب. وقد يكون أيضا صدم لرد الفعل عندها، هو

من يقدر الجهود والمشاكل والصعوبات اليومية التي برزح تحت وطأتها سكان هذه الاماكن.

أبدت "سابين" موافقتها قائلة:

– إنك على حق. كما أننا تجاوزنا الآن "ميثلاوي" ومناجم الفوسفات. وهي أسوأ أيضا.

– هل تعرفين البلد جيدا؟

أجابته بنبرة صادقة:

– أعرفه وأحبه.

كان في إمكانها أن تضيف: "ربما أنه بلدي بقدر ما هو بلدك". غير أنها لا تستطيع معرفة ذلك إلا في اليوم التالي في "جفصة" في هذه المدينة الحزينة إلى حد ما، ذات الأبنية الجديدة والتي من بينها تحت المدرسة الثانوية الضخمة. وأولياء أمور التلاميذ يعيشون سواء في الواحات أو في الهضاب الجرداء، وهم إما بستانيون أو رعاة.

وكان أجمل فنادق "تونس" – الـ"چوچورتا بالاس" – هنا في ملتقى الطرق المؤدية إلى الواحات وإلى بداية الصحراء الكبرى، الممتدة تجاه الحدود الجزائرية.

قال الرجل دون أن يلتفت إليها:

– سأتركك، هل ستتصلين هاتفيا؟

– يجب على الأقل معرفة أني في "جفصة" أنا لا أستطيع ترك رئيسي بلا أخبار عني.

انطلق في الضحك. أضاف بلطف:

– يجب أن تحاولي دائما. لكن ليس من السهل الحصول على خط تليفوني.

– من البديهي أني لن أتكلم هاتفيا. لقد فهمت من كلامك. أعلم جيدا أن هنا أجهزة للتنصت على التليفونات تعمل فور هبوط أحد الصحفيين.

– ليس فقط من أجل الصحفيين الأجانب– هكذا ضحك الرجل

ساخرا– لكن عندما يعلم الشخص ذلك يصبح من السهل أن يتخذ الحذر.

وكان كأنه يحاول أن يستعيد سمعته– في لحظة انفصاله عن الراكبة التي معه– وأن يجعلها تنسى ساعات الصمت الطويلة. أردفت "سابين" بنبرة لطيفة:

– لابد وأنك متعجل للقاء ذويك. شكرا على المعلومات. أرجو أن أتمكن من إجادة عملي.

– في إمكانك أن تثقي بنا.

ثم تناولت بنفسها حقيبتها من حقيبة السيارة الـD.S، وولجت إلى الفندق بعد أن ألقت إشارة ودية إلى رفيق طريقها. قال لها موظف الاستقبال:

– لقد استقبلنا فوجا بأكمله من السياح الذين وصلوا من "توزير" في فترة بعد الظهر، لكنك محظوظة. توجد حجرة بصالون.

– لقد قيل لي إن الغرف متوفرة لديكم في هذه الفترة من السنة.

– إنها حقيقة. لكن بما أن رئيس الجمهورية سيصل إلى المنطقة غدا..

– حقا؟

– نعم، سيتوجه إلى واحة "نيفتا".. التي تبعد عن هنا بنحو مائة كيلو متر.

أردفت "سابين":

– أعلم جيدا.

شعرت الصحفية بأهمية التفكير فيما تتطلبه ضروريات التقرير الصحفي. وتطلعت إلى التوقعات السياسية غير المتوقعة.

– إن كل فنادق الواحات مكتملة، ولقد استقبلنا– نحن أيضا– عددا كبيرا من النزلاء الذين وصلوا جميعهم إلى مطار "توزير".

"قد يكون "چوليان" على علم– من قبلي– بهذه الزيارة الرئاسية. لأنه بالتأكيد في "جفصة"" هكذا فكرت أثناء ما كانت تملأ استمارتها وهي تتناول كوب العصير التقليدي الذي تقدمه كل فنادق "تونس"

إلى زبائنها علامة للترحاب بهم.

– ألم تكن زيارة الرئيس متوقعة؟

– إنها ليست زيارة. سيقضي عدة أيام راحة في "نيفتا".

كان من الضروري إخطار "ديفيفيه" طلبت الاتصالات وجعلتهم يقودونها إلى حجرتها. تفحصت مفكرتها، وجدت فيها عنوان أحد المعاونين الفرنسيين القائمين في "جفصة". كان مديرها قد أعطاها سلسلة من الاتصالات الممكنة في المدن التونسية. وإذا بصوت سيدة يرد عليها:

– سوف يعود زوجي خلال دقائق، هل ترغبين في تناول العشاء معنا؟

قالت "سابين" وهي تأمل أن تمكنها من الذهاب إلى مجلس محلي المدينة في فترة بعد الظهر:

– أفضل أن ألتقي بكما غدا.

– وهو كذلك. غدا السبت، اليوم الذي نستقبل فيه كل أصدقائنا. إذا كنت تحبين الرقص– على أي حال– فستتقابلين مع الكثير من مواطنينا، إذا كان ذلك يفيدك بالنسبة لتقريرك الصحفي.

خفضت السماعة. كانت السيدة التي ردت عليها تبدو لطيفة، لذلك تشجعت على الرغم من تعبها. ثم طلبت الاستقبال لكي تخطر الجريدة بخبر وصولها إلى "جفصة".

قال عامل السويتش في احترام:

– ناسف لان جميع الاتصالات مع "فرنسا" مرفوعة حاليا من الخدمة.

– حقا؟ مع كل "فرنسا"؟

– نعم يا آنسة. تأكدي أن فور وصول الحرارة سأطلب رقمك.

– وهل كثيرا ما يحدث ذلك؟

– إلى حد ما. ربما نضطر إلى الانتظار حتى صباح غد.

وكان لا داعي من الاعتراض غير المجدي، يبدو أن أصدقاء "فيصل" في "جفصة" عديدون. وسوف يعاونونها، ترى هل ستكون لها فرصة حضور انقلاب سياسي.

وفي الحال فكرت في "جوليان" يجب أن تتأكد من أنه غير متواجد في

الفندق... لا. بل ينبغي أفضل من ذلك معرفة– أولا– إن كانت تستطيع التوجه إلى مجلس محلي المدينة ومعرفة– أخيرا– حكم القدر. تشوشت مرة أخرى. إن المكاتب تغلق بدءا من الخامسة والنصف. ألحت:

– لكنه أمر ضروري جدا. والساعة الآن الخامسة وخمس وعشرون دقيقة.

أجاب صوت موظف الاستقبال:

– اسمعي بنفسك.

سمعت رنات التليفون لفترة طويلة. لا شك في أن الموظفين بدءوا في ترتيب الملفات ولا يرغبون في أن يزعجوا في الدقيقة الأخيرة.

ملت هذه المحاولات غير المجدية حول التليفون وكما أنها أنهكت أيضا، وفضلت القيام بزينتها بهمة، وأن تبدل ملابسها لكي تغير من مزاجها.

استوقفها طويلا مشهد الضوء المنعكس على الهضاب الصحراوية عندما وقفت أمام النافذة. إن المرء يشعر هنا بأنه يغير من عالمه، ربما أيضا من كوكبه الذي يعيش عليه. إذ كانت كل درجات الألوان الأصفر والذهبي والأحمر تضع– بين السماء والأرض– أبخرتها على شكل سحب.

وكان الهواء يثير من على الأرض– مثل الضباب– آلاف ذرات الرمال والحزف الجاف التي تنضم إلى سفوح التل وتعلق بالأبخرة النازلة من السماء ومن القمم. قد يستطيع المرء البقاء ساعات في تأمل هذا الغزو للحقيقة من قبل غير الحقيقي، هذا التطور البطيء للنهار وقت الغسق.

ظلت "سابين" منحنية على شرفتها فترة طويلة في هذا الجو الهادئ النابع من سكون وعجائب الصحراء القريبة منها. كثيرا ما كانت "سابين" تحدث "جوليان" عن الجنون، وتذكرت معه فترة الإقامة التي لا تنسى أبدا، والتي كانت قد قضتها مع والديها...

غير أن هذه الذكريات بدت غريبة لها من الآن فصاعدا. لم يعد ماضيها ملكا لها، وأصبحت تنظر إلى الفتاة الصغيرة السعيدة التي كانت هي وكأنها مجهولة لها...

مقابل ذلك كانت "سابين" في الآونة الأخيرة قد أيقنت أنها– على الرغم من الانفصال– زوجة "جوليان"، وأنه لم يحدث أي تغيير لا في رغبتها ولا

في حنانها. ومن يدري ربما هو أيضا في نافذته- في مكان ما- على بعد عدة أمتار فقط. سرت بأن تحلم بأنه- أمام هذه الهضاب- يتذكر ما كانت تصفه له عن هذه الأماكن وعن أمنيتهما في العودة معا إلى هذه الأماكن.

"عندما يرغب المرء كثيرا في شيء ما، قد لا يتحقق أبدا أو أنه يتحقق في وقت غير مناسب..." .

إنها ابنة عم "ماتيلدا" هي التي كانت تردد كثيرا هذه الجملة اليائسة. وكانت "سابين" وقتئذ تحاول ألا تصدقها، وأن تفكر في أن هذه السيدة القاسية عديمة الأمل وحب الحياة. ومع ذلك ربما أن "چوليان" موجود في هذا المساء وفي نفس الوقت في "جفصة"، وقد فصله القدر عن زوجته، هذا القدر الذي يلاحقها بلا شفقة. وأخيرا قررت النزول إلى حجرة الطعام. كانت قد ارتدت فستان التيل الأبيض المزدان بالقطان الحريري الأصفر الذهبي. وكانت لا تجهل أن هذا الهندام قد أبرز جمالها، لكنها لم تستمتع بهذا الإحساس. لأن ما هي قيمة "سابين" الجميلة من الآن فصاعدا، إن لم تعد تعجب "چوليان كروازو" زوجها؟ وإذا كان قد أعجب بغيرها، وأن هربها الغبي قد تسبب في وجود هوة بينهما يصعب عبورها.

ولما كان نزلاء الفندق قد اتخذوا أماكنهم في حجرة الطعام، التفتوا جميعا إلى هذه الفتاة الجميلة... ومن بينهم رجلان أطالا النظر إليها وابتسما لها.. أحست بأن هذا المديح الصامت، ليس سوى سخرية مؤلمة.

- لقد قمت بحيلة خبيثة عندما شرعت في الرحيل إلى "جابيه" .

هكذا صاح بالقرب منها صوت الملحق الصحفي الفرنسي. التفتت "سابين" إذ فوجئت وحيت "روبير" الظريف. أكدت وهي تبتسم:

- لقد كنت أعتزم حقا النزول في "غاداميس" .

أشار لها بالجلوس إلى مائدته، وقال معترضا:

- أنا لا أعتقد شيئا في ذلك... لكنها حرب حقيقية... وفي الواقع أعتقد أنه مفيد جدا بالنسبة للمراسلة الخاصة أن تحصل على مقابلة مع رئيس الدولة أفضل من أن تسعى وراء ثورة خيالية...

- مقابلة مع رئيس الدولة؟

- اعتقد أنك هنا من أجل ذلك؟

سُرَّت "سابين" داخليا لهذا الخطأ الناتج عن سوء تفاهم وحكمت بأنه لا فائدة من خداع الشاب. ومع كل، من الأفضل ألا تدخل في الإفصاح عما تحرمه عليها مهمتها. أجابت:

- سلمنا جدلا. لكن أنت ذاتك يا "روبير" لماذا أنت هنا؟

- سأعود صباح غد، لقد رغبت في الحصول على بعض المعلومات قبل العودة.

- و... والسيد "ويندو" .

كانت تفكر في "چوليان" وتأمل معرفة أخبار عنه بدفعها الملحق الصحفي إلى الكلام.

- لقد توجه "ويندو" أخيرا إلى الحدود الليبية. كما أنه لحق بـ"كروازو" الذي لابد أن يكون هو أيضا هناك.

على حسب رأيي، لقد كنا فريسة شائعات كُونت من كل نوع، ولم يفكر أحد في غزو الإقليم. وكانت "سابين" - أثناء ما كان يتكلم- تعمل على إخفاء خيبة أملها في الوقت الذي اكتشفت فيه كم أنها تمنت وجود زوجها في "جفصة" .

سألها "روبير":

- هل يبدو عليك الريب؟

مرتابة أو متشككة من الممكن أن تكون هكذا بعد لقائها بـ"فيصل"، والمسافة التي قطعتها مع سائقها غير المتوقع. لكن المصادفة لعبت دورها أكثر من مرة خلال رحلتها. ولما كان من الممكن ألا يصدقها "روبير" لم تشأ أن تخدعه تماما. قالت:

- نعم، إني مرتابة، لأن عناصر عديدة تعمل على احتمال محاولة ما. ولست مقتنعة بعد بأن هناك ما هو خفي في الأمر.

- ومع ذلك هأنت هنا؟

أجابت:

- إن القدر يعمل حيثما شاء. ربما ينبغي أن أكون هنا!

– إنك لا تفكرين في الأمر بجدية، وليس هنا من ينذر. لقد بدأت قوات الجيش المتواجدة في "جفصة" في التحرك.

– عمليات؟ هل أنت واثق؟

– متأكد.

يجب أن تتصل حتما بـ"ديفيفيبيه" وتخطره.

– وماذا كان رأى السيد "كروازو" – وهو متخصص في العالم العربي – قبل مغادرته لـ"جابيه".

– لقد تمكن "ويندو" من إقناعه، لأن "ويندو" يحلم بحضور أحداث الانقلاب. هذا بالإضافة إلى أن "كروازو" لا يستسلم بسهولة. إنه إنسان كتوم.

كتوم؟ "جوليان" كتوم؟ هذا الشخص الذي كله جاذبية والذي يتمتع بروح الدعابة؟!

أردفت "سابين":

– لم أجد قط الوقت الكافي للتحدث معه. يقال إنه على علم بالأمور.

– أنا لا أشك في كفاءته، إنما فقط في قدرته على الاتصال، إذ إنه يبدو محتقرا للجميع. قد تكون له – مع كل – مبرراته. لقد علمت أنه يعيش في "بيروت" مثل الدب.

– ما معنى ذلك؟!

– إنه لا يخرج أبدا، ولا يختلط باحد، يعمل بلا توقف ويمكث في السفارة إلى ساعة متأخرة.

علقت "سابين":

– دبلوماسي مثالي بالإجماع.

– لا.. إن أعمالنا لا تتطلب منا أن ننعزل في المدن التي نقوم فيها بعملنا.

– إلا إذا كانت صلة سرية.

هكذا قالت "سابين" مازحة لكي تشجع "روبير" على الإفصاح بما يعرف.

– وهنا أيضا السر. "ويندو" يؤكد أن "كروازو" تزوج.

– كيف علم ذلك؟

– لقد استُقبل أحد أصدقائه في "باريس" من قبل زوجة "كروازو"، وهي سمراء رائعة على ما يبدو وأصغر منه سنا بكثير. ربما أنها قد ملت؟

ثم أطلق "روبير" ضحكة مرحة، ساخرة. من البديهي أن متاعب الشاب العاطفية الذي يعتبر ساحرا تشكل بالنسبة له نوعا من الانتقام! حينئذ شعرت "سابين" بارتباك لا إرادي.

– لابد وأن تكون هذه الصغيرة غبية حتى تمل مثل هذا الزوج الذي يتمتع بروح السحر والإغراء.

– هل تجدينه ساحرا؟

– جدا! وهو جميل أيضا ويبدو ذكيا. أما بالنسبة لما له من مزاج فهو ما يضيف إلى سحره نوعا من الغموض.

تنهد "روبير" المسكين:

– هذا هو حال النساء. إني معجب بك، واقرأ لك بانتظام، كما أني متمسك باستنتاج ما قد يعجبك، وهانت تقذفينني بان "كروازو"...

– هذا لأنك مازلت حدثا يا عزيزي "روبير"، خلال بضع سنوات، ستشعر بثقتك بنفسك أكثر من ذلك!

لماذا جرحت "سابين" – بلا فائدة – هذا الشاب المسكين؟ أبدافع من التضامن نحو "جوليان" أم عن تضحية أم عن حب؟ ولكي تجعله يغفر لها، تناولت "سابين" العشاء بمرح مع رفيقها، وقبلت أيضا الذهاب معه إلى المشرب للقيام ببعض الرقصات وتناول كأس من الشراب. وبعد ذلك تركته لكي تعود إلى حجرتها، حيث ينتظرها الأسى والوحدة. وغدا إلى مقر البلدية.

الفصل السادس

استيقظت "سابين" في صباح اليوم التالي في ساعة متأخرة وهذا

بفضل الشراب. لم تحتج إلى الصبر للتوجه إلى وسط المدينة والسؤال عن مقر مجلس المدينة. عندما وصلت أمام المبنى صدمت: الأبواب والنوافذ موصدة، قصدت أحد الحراس الجالسين على درجات السلم وسألته في خجل عن موعد فتح هذه الإدارة. أجابها بالفرنسية:

– أسبوع إنجليزي. إنهم لا يعملون هنا يوم السبت. ألم يخبروك بذلك؟

كادت "سابين" تنخرط في النحيب وهي تصغي إلى هذا الرجل العجوز الذي كان يتفحصها مسرورا. ترى هل فقدت اتزانها حتى أنها غفلت عن هذه المعلومة التي تعرفها جيدا؟ عادت حزينة إلى حجرتها. وأثناء عودتها قطع عليها الطريق– حول حوض السباحة الرومانية– فريق من السياح المتقدمين في العمر، ولما حاولت أن تشق لنفسها طريقا أوقفتها سيدة مسنة:

– ألم تشاهدي كيف يقوم أولئك الصغار بالغطس. تعالي، تعالي انظري، إنه منظر خلاب!

أطاعت بتلقائية. كان أولئك الصغار من سن خمس سنوات إلى سن الثانية عشرة يغوصون– عارين إلى النصف في الحمام للحصول على قطع النقود التي يلقي إليهم بها السياح.

لقد جرح أحاسيسها هذا التصرف، لان فيه عدم لياقة بتحويل أولئك الصغار إلى نجوم سيرك. ثم وقفت تراقب على التوالي ما بدا من إعجاب على وجوه السياح، ومن مرح على وجوه الأطفال. وكان الجميع قد حصلوا على حقهم بهذا التبادل السخيف. ثم لامت نفسها على قسوتها في الحكم. فجاة ظهر– من الجانب الآخر لحمام السباحة– شخص فارع، متشح ببرنس من الصوف الأسود "الكابيشون" نازلا حتى عينيه. إنه ليس من السياح ربما أنه هو أيضا لم يستحسن موقف الأطفال هذا أو أن حكمه كان غير متساهل نحو أولئك الكبار الذين يقومون بهذه التسلية المشكوك فيها... والدليل على ذلك أنه شق فريق السياح، مال على حوض السباحة، وألقى أمرا بنبرة قاسية وكان صوته أجش.

في الحال– وكأنه طيران حمام– تفرق الأطفال تاركين خلفهم تمتمة

من الندم أو عدم الاستحسان.

استند الرجل بعد ذلك إلى الحوض. وكان يطيل النظر إلى قاع الماء. وكان بقية السباحين يصعدون بسرعة مذهلة على السلالم... لم يضف كلمة واحدة بعد ذلك، ولم ينظر إلى الفوج الدهش الذي تفرق لكي يتوجه نحو حديقة الحيوان لكي يغزوها... أما "سابين" فكانت تراقب هذا الرجل من الجانب الآخر من الحمام. كانت مقتنعة داخليا بانها تعرفه، وأنها رأته قبل ذلك. وخلال لحظة قصيرة دفعها خيالها إلى اعتقاد أنه "چوليان" وقد تخفى على هذا النحو... إنه نفس القوام الفارع، ونفس المنكبين العريضين.

ولما كانت تلوم نفسها على هذه الهلوسة، لمحت أنه لم يبق بعد على حافة الحمام سواها هي والرجل، يفصلهما الماء اللامع. لكن لماذا ألقى "چوليان" بهذا البرنس على ملابسه؟ هل كان يقصد اتباعها أو تعقبها؟ لا.. ربما أنه تخفى هكذا لكي يتجول بالمدينة ويرهف السمع إلى أقوال الناس والشائعات وما شابه ذلك، دون إثارة أي شكوك؟

وفي الوقت نفسه، وجدت أنها غير صائبة في حكمها هذا، لان "چوليان" متواجد حاليا مع "ويندو" عند الحدود الليبية وها هي تلعب بفكرها وبذهنها بخطورة، وذلك بتخيلها أن هذا القوام الرشيق الواقف بلا حركة، ليس سوى زوجها.

في هذه اللحظة نهض الرجل وسقط "الكابيشون" لكي يظهر شعر أشقر مجعد. لم يكن "چوليان" إنه "فيصل" يبدو مبتسما. وضع هذا الأخير اصبعا على فمه قبل أن يبتعد.

استيقظت "سابين" من أحلامها، وظلت بلا حركة على حافة الحمام، إلى أن عادت زمرة الصبية– ضاحكين مشرثرين– إلى الالتفاف حول جماعة أخرى من الزوار ذوي الشورتات الواسعة والقمصان المزركشة بالوان متعددة، والوجوه التي علتها الحمرة من أول تعرض للشمس. حينئذ دخلت ببطء إلى الفندق وقد قررت الحصول على اتصال بـ"باريس"، ثم النوم حتى المساء لكي تنسى "چوليان" ولكي تبعد عنها–

لبضع ساعات- تساؤلاتها عن مولدها وعن أصلها مما لا يفيد بشيء.

كانت قد تعشمت- عند دخولها هذه المرة إلى الفندق- أنها سوف تكون محددة على هذه النقطة المتشعبة. لكن ها هي عادت كما رحلت تجهل كل شيء عن ذاتها وغير قادرة على تحديد ما يخبئه لها المستقبل. وكان لابد لها من الموافقة- مرة أخرى- على تناول وجبة مع الملحق الصحفي الفرنسي. كان عائدا متحمسا من زيارة لحديقة حيوان المدينة. استرسل في الحديث أمام "سابين" التي كانت تعلق على أحاديثه المفصلة ببعض كلمات فقط.

خاصة الأروبة (وهو نوع من المعز) إنه حيوان أسطوري حقا! له عينان على كل جانب من جبينه العريض القوي، عينان لا تنظران إليك أبدا...

-هل شاهدته عن قرب؟

- إنه ليس وحشيا، وهو يأتي حتى الحاجز. والمتفرجون يطعمونه. إنه ليس شريرا. لقد وجدت أنه لغز مثل أبي الهول!

أردفت "سابين" في أدب...

- لم أتخيل ذلك...

- يجب أن تذهبي لمشاهدته! لكني أعتقد أنك قد كرست زيارتك للمدينة للقاءات سياسية.

- سياسية؟

دهشت حقا وتحققت حينئذ أنها أصبحت مراسلة- خاصة- حقيرة منذ أن رأت "جوليان" مرة أخرى. وفي الواقع، لم تحاول "سابين" الاتصال بسكان هذه المدينة الصغيرة التي مع ذلك- تتحدث بلغتها بطلاقة. لو أن "جان ديفيفييه" توقع أن تقوم "سابين" باداء مهمتها باللامبالاة لصدم، لا شك في ذلك.

ألم يخب ظنها- هي أيضا- عندما اكتشفت فجاة أنها لم تعد ملكا لـ"هدفها"؟ ربما أيضا أن "جوليان" على حق في تهكمه من عملها، وفي اعتبارها أنها مجرد فتاة جميلة متمردة أكثر من أن تكون إنسانة مسؤولة... ولم يكن في إمكانها مشاركة الملحق الفرنسي لاعتباراته الشخصية.

قالت باختصار:

- إنك تعلم جيدا أني أعمل بوضوح وأني لا أظهر كل أوراقي! أي أنها لا تكشف عن كل نياتها.

- إني واثق بذلك! وقد تكونين أكثر مهارة من "كروازو" ذاته وكما بالنسبة له معنى اللغز يزيد من سحرك الذي أجد نفسي ضحيته!

تضايقت "سابين" من كلمات الإطراء هذه، والتي تلاحقها بلا شك من غيره. تذكرت مسرورة صوت زوجة المعاون التي قابلتها. قد يفيدها ذلك. وإذا لزم أو اضطرت إلى الرقص فسترقص، ولم لا؟

في نهاية الوجبة نهضت بسرعة واستأذنت من الشاب الذي تركته- غير نادمة- لأحلامه العاطفية. "إنه- في الواقع- أقل مني غرابة في أفكاره" هكذا جاء تفكيرها عندما عادت إلى حجرتها، لن تتملكه فكرة الخضوع إلى هلوسة مثل التي جعلتني أخلط هذا الصباح بين "فيصل" و"جوليان".

- لا.. الخط مازال معطلا.

هكذا أكدت لها موظفة الاستقبال في هدوء عندما حاولت الاتصال بـ"باريس" للمرة الالف...

حينئذ أجابت:

- إذن، يجب أن أتوجه مرة أخرى إلى "جابيه"، لأني على أي حال لا أستطيع العمل في مثل هذه الظروف!

استطرد الصوت الرصين:

- أمر مؤسف، لكنها ليست المرة الأولى و...

خفضت "سابين" السماعة دون أن تنتظر. والآن ها هي تشعر بأنها سجينة هذه المدينة حيث أوصدت أمامها كل الأبواب. في حين أنها تمنت كثيرا التواجد في "جفصة" وها هي تصبح أسوأ مكان اكتشفته: إنها صحفية عادية تحب رجلا قد نسيها، ولم يمنحها أحد أقل تفصيل أو معلومة عن ظروف ولادتها الغامضة... وأخيرا ستهب عاصفة رملية على المدينة خلال أقل من الساعة. أصيبت "سابين" بالإحباط، فالقت

بنفسها على سريرها. وإذا بوجه "فيصل" المبتسم يتراءى لها. بذلك قد يكون قد لحق هو أيضا بـ"مسرح العمليات".

لكن أي عمليات؟ لماذا احترمت الفتاة رغبته في الصمت؟ إذ كان ينبغي- بالعكس- إقناع الشاب بأن يتكلم. خلال دقائق تواجدت من جديد على استعداد. إن "جفصة" ليست مدينة كبيرة ولا ذات مساحة كبيرة. وبذلك لابد من العثور على الصغير "بريبر".

بعد قليل جابت في الشوارع، ثم ركنت سيارتها، وأخذت تزور الأسواق والمحلات، حتى إنها أيضا عملت على التسكع في حديقة الحيوان حيث السياح الذين يطيلون البقاء أمام الثعالب الصحراوية ذوات الفم المثلث والآذان العريضة المدببة، معجبين ومتأملين... ثم على بعد عدة أمتار، جذبتها صيحات هولندية ضخمة ترتدي بنطلونا ذا مربعات حمراء وصفراء، وكانت تبدو مبهورة بهذه الـ"إغواندة".

- ما قبل التاريخ هل هي أسطورية؟

هكذا كانت تردد للحارس الذي نظر إليها في فضول مكررا:

- لا.. إغواندة.. إغواندة (من فصيلة الديناصور).

أسرعت "سابين" الخطى دون أن تبدي حتى ابتسامة ولو صغيرة، إذ كان عليها اختراق شوارع المدينة المزدحمة. وإذا- بعد لحظة- تلفت نظرها في متابعة لرواية بوليسية غير أن الطريق بدا خاطئا، إنها دانمركية رائعة وليس "فيصل"..!

ما هو السبيل للعثور على الشاب دون أن تفشي السر الذي تعهدت بأن تحترمه؟ هذا بالإضافة إلى أن شعب "جفصة" ليس مرنا على خلاف شعوب مدن الجنوب. إنهم- بالعكس- شعب متواضع، قانع، صموت نسبيا ومتشكك. بذلك يصبح الاتصال به مستحيلا إن لم يبد الشخص فضوليا.

سارت بطول إحدى الثكنات وشاهدت العديد من الجنود يخرجون منها... "إن المعلومات التي أدلى بها "روبير" عن وجود أحداث مسببة ليست إذن جادة". هكذا حدثت نفسها بعد أن اطمأنت لهذه الأوضاع التي تستبعد قيام انقلاب دولة. وإذا بأحد الباعة واقف على عتبة محله،

يقول لها:

- تعالي انظري يا آنسة. تعالي! عندي أشياء نادرة مما يعثر عليها في باطن الأرض، لن تجدي مثلها في "باريس"...

إنه بائع مبتسم يدعوها إلى الدخول إلى محله، وهو محل أشياء قديمة أو أثرية نادرة. إنها حقا نادرة، أسماك متحجرة، قواقع، إلى جانب أحجار قطعت حديثا، وهي من العصور الأولى بواسطة سكان هذه المنطقة الأوائل!

دخلت "سابين" المحل وسألته:

- الا تعرف شابا يدعى "فيصل"؟

- أعرف كثيرين بهذا الاسم.

اكد هذا الأخير في حذر.

- لماذا؟

- لقد تقابلت مع شاب قد أنقذني عندما تعطلت سيارتي منذ يومين على الطريق. أود أن أشكره.

- إذن لديه سيارة؟

- لا. عندما رأيته كان ممتطيا جوادا.

هكذا اعترفت "سابين" ظنا منها أنها بذلك تطمئنه.

- هل في إمكاني مشاهدة هذه الأشياء أو هذه القوقعة؟

مد لها يده مؤكدا:

- لا اعرف شخصا يدعى "فيصل" وله حصان.

ألحت "سابين":

- بكم هذه القوقعة؟

- إنها ليست للبيع.

- لماذا؟

- إنها ليست للبيع. هذا بالإضافة إلى أنه ينبغي أن أغلق المحل قبل الموعد وهذا أفضل.

حاولت "سابين" -وقد احتارت- أن تناقشه. إنها واثقة بأن البائع

يعرف "فيصل" جيدا لكنه مصرّ على عدم الاعتراف بذلك.

– خسارة، إني غير قادرة على العثور على هذا الشاب.

هكذا أضافت وهي ترفع دبا صغيرا محتفظا إلى الأبد بشكله المنتظم.

– كان ينبغي أن تساليه عن عنوان إقامته.

هكذا قال لها صاحب المحل.

– لم أشأ أن أبدو له ملحّة في الحال. لقد عاونني كثيرا. آه لكن أين نجد...

– في "تاميرزا" يوجد هناك أيضا صوان منحوت جيدا. لسوء الحظ الآن يجب أن أغلق المحل.

ولم يكن في استطاعتها الإلحاح أكثر من ذلك. أضافت:

– سوف أمر صباح غد. أريد أن يكون لي الوقت للاختيار.

ثم ابتعدت عن المحل، لكنها انتظرت لحظة في أول شارع، لأنها كانت ترغب في التأكد من أن التاجر سيغلق محله كما أكد. وبينما هي تراقب المحل من بعيد، خرج الشاب فعلا وبدأ ينزل الباب الحديدي. ولم يكن هو الوحيد الذي يتصرف هكذا، لأن على جانبي الشارع كل واجهات المحلات قد أغلقت.

لامت "سابين" نفسها على ما أبدته في نفسها من شكوك نحو البائع. إنها– لا شك في ذلك– عادة هذه المنطقة في الغلق مبكرا جدا. ولم يبق أمامها بعد إلا الذهاب إلى الفندق والاستعداد للسهرة عند المعاونين. وأثناء مرورها على الاستقبال لأخذ مفتاحها حصلت على معلومة أخيرة، لقد اتصلوا بها من "تونس" وسوف تتصل بها "ليلى شكري" في صباح اليوم التالي، وأكدت أنه لا يمكن الاتصال بها خلال السهرة. لقد فقدت الفرصة الوحيدة المقدمة لها للحصول خلال هذا اليوم على أثمن المعلومات التي طالما انتظرتها.

إذن كان لابد من أن تتصرف. عندما دخلت إلى حجرتها، عزمت على أن تتزين بعناية لكي تشرف مضيفيها. لمسة من الأحمر على وجنتيها، قليل من الأزرق على الجفون، سوف تمنح نظرتها بريقا.

وعندما نظرت "سابين" إلى المرآة، تعرفت وجهها الجذاب الذي أحبه "جوليان"، ولكي تبدد كآبتها بعض الشيء، قامت ببعض الحركات التي قد تصدر من فتاة صغيرة وإذا بها تفاجأ بأنها ابتسمت.

رن جرس التليفون.

– إنك مطلوبة من "جابيه".

– نعم، أعطني الخط.

– آلو؟ الآنسة "ريفيير" أليس كذلك؟

– لكن..

– نعم، إنه أنا. أهنئك على تحفظك وعلى الطريقة التي تحتفظين بها لنفسك بمعلومات ربما كانت تجنب حدوث كارثة.

إنه "جوليان" ألقت "سابين" بنفسها على سريرها وقد حطمها الأسى والدهشة، لم تفهم إلى أي شيء كان يشير من شدة ارتباكها عندما سمعته من جديد، وفي اللحظة التي كادت ترفض هذا الأمل.

تمتمت:

– أنا لا أفهم.

– من العبث التظاهر بالخجل! لقد تركتنا نرحل إلى الحدود الليبية دون أن تحاولي إخطارنا.

– لكن، كان ينبغي أن أذهب أنا نفسي.

– لا شك في أن "ديفيفييه" هو الذي أملى عليك هذا السلوك! إنه يستخدمك جاسوسة دولية!

– لا.. أبدا إني في "جفصة".

– لا فائدة من منحي معلومات خاطئة. ومع كل، أنا لا اتصل بك للحصول على معلومات وغاية ما في الأمر، أرجوك فقط ألا تغادري الفندق إلى أن ألحق بك!

– مستحيل يجب أن أحصل على معلومات.

– إنك لم تحصلي على معلومات بقدر كاف. إنما أخطرك من أجل ماض معين. امكثي في حجرتك ولا تغادري الفندق تحت أي حجة أو

ادعاء! يجب أن تعلمي حقيقة الأمر..

وأثناء ما كان صوت "جوليان" يلقي بأوامره غير المفهومة، كانت تحاول إيجاد مبرر لتصرفها. ربما أنه يجد في حصوله على المعلومات بعدها نوعا من التحدي. لكن على ماذا؟ إن المشروع الذي ذكره "فيصل" مشوش غير واضح. ليس ما يثبت أنها تواجدت في حضرة أحد أولئك دائمي الإثارة، الذين يعلنون بسهولة الكثير من الفوضى، ثورات أو نهاية العالم. إذن ما الذي يريده "جوليان"؟

قالت في خجل:

– سوف نتمكن من التحدث معا إذا حضرت. إني.. إني ربما لا أتمكن من التفاهم... في النهاية.

– الأهم حاليا هو أن تمكثي في الفندق. يا للخسارة، كان لك رفيق ممتع في شخص ملحق صحفي، لكن يؤسفني أن أخبرك بأن سفيرنا استدعاه، وأنه حاليا في الطائرة التي تقله إلى "تونس"!

– وبم يهمني ذلك؟

– لا شيء– إني واثق بأنه منذ الليلة سيوجد من يحل مكانه!

– "جوليان"، أنا...

كادت تقول: "أحبك كثيرا"، لكنها امتنعت. وفي رغبته للانتقام، كان "جوليان" يعمل على منعها من العمل، وأن يجعلها موضع الإهمال أو الخطأ إزاء الجريدة ومديرها.

– إذن ستظلين في الفندق؟ سأرحل في الحال إلى "جفصة".

– آسفة، لأني أجد أن عملي يأتي في المرتبة الأولى، قبل أهوائك، وأنه ينبغي بالضبط أن أخرج هذا المساء للقاء بعض مانحي المعلومات.

– إنك تعلمين مع ذلك.

– لا، لا أعلم شيئا. ولا أنت بلا شك. لكن– مادام أنه لا وجود لأي توتر، سأحاول الحصول على مقابلة أو لقاء رئيس الجمهورية.

إذن لقد أسفت كثيرا لتصرفي هذا. إنك لا ترغبين في فهم شيء ولا قبول شيء. وإذا حدث شيء ما فاعلمي أني لن أندم ولن أشعر بتانيب

الضمير ولن أنسى بسرعة.

صاحت "سابين" وقد انخرطت في البكاء:

– أعلم أنك "نسيت من قبل"

– "سابين"!

وكانت هذه هي المرة الأولى التي يناديها فيها باسمها، في غير سخرية. لكن كان لابد لها من أن تخفي عنه أنها تبكي. خفضت السماعة.

الآن في إمكانها الاستسلام إلى حزنها. خلال ساعة تحولت جهود الماكياج إلى مجار متعددة الألوان، لوثت الوسادة التي كانت تحتضنها وهي تذكر "جوليان" يائسة. وا أسفاه كانت تفتقده كلما غاب عنها، وكانت تتمنى رؤيته مرة أخرى، وعندما كان يتدخل من جديد في حياتها، كانت تستعيد شراستها، رغبتها في الانتقام من ازدرائه لها منذ ذلك الحين. ومرة أخرى أتت إلى ذاكرتها الزيارة المتأخرة التي تمت في فترة بعد الظهر ذات يوم منذ عامين. كانت "سابين" في تلك الليلة قد استقبلت في الصالون زائرا عاديا في مظهره ومع ذلك عمل هذا الأخير– كما في الروايات– على تغيير حياتها تماما.

كم أن والديها بالتبني قد أخطآ بعدم إحاطته علما بالحقيقة! ويا له من فخ ذلك الذي أوقعاها فيه لا إراديا بذلك. كان صوت الزائر العذب يرن في أذنيها.

– لكن الفتاة الصغيرة التي تبنياها؟

وتذكرت فظاعة هذا الإعلان. غير أنها كانت قد جمعت كل شجاعتها لكي تجيب:

– لست أدري حقا!

وانصرف وقتئذ الزائر، معتقدا أنه يتعامل مع أحد سكان منزل أصدقائه القدامى. ومع ذلك إنها الفتاة الصغيرة المتبناة هي التي أعادت غلق الباب عليه بعد رحيلها. وقبل أن تغادر المنزل في ذلك اليوم، كانت قد فكرت لحظة في الاتصال هاتفيا بموثق والديها. لكنها كانت على علم بأن هذا الأخير كان قد تقابل مع "جوليان" قبل زواجهما. لو

كان علم الحقيقة لتوجه إليها، وليس إلى من لم يصبح زوجها بعد.

نظرت إلى ساعتها. منحتها القوة لكي تتحرك. وكان عليها أن تعيد كل شيء: الماكياج والابتسام في المرآة. لكنها لم تجد الشجاعة الكافية لذلك، وغادرت حجرتها على عجل، خشية أن تبكي من جديد.

ليس أمام السيارة الـ 404 سوى مسافة كيلو متر واحد، تقطعه في المدينة لكي تتواجد أمام ڤيلا جميلة أنيقة ذات حديقة مليئة بالنخيل والزهور.

– إننا في انتظارك بفارغ الصبر. أنا أدعى "فلورانس".

هكذا أردفت فتاة شقراء كانت في الانتظار أمام الحاجز. ثم دخلت "سابين" إلى مجال الحفلة. كان هناك العديد من الأزواج الشبان، بعض الأطفال يتحركون بكل جرأة بين سيقان الكبار، وموسيقى جنونية تبثها سماعة آخر صيحة. لم يكن هناك أثاث تقريبا في الحجرة الفسيحة إنما وسائد وسجاجيد ومناضد منخفضة تغطيها الزجاجات والأطباق.

شعرت "سابين" في الحال بأنها غريبة نظرا لعدم اهتمام الجميع بها. كان أولئك "الشبان كلهم تقريبا في مثل سنها. لكنها شعرت بأنها أكبر منهم بكثير.

قال "بيرتراند" زوج "فلورانس":

– لقد قام تلاميذي بمقلب لطيف نحوي. كنت أقوم بتلقينهم إملاء، وبدلا من أن يكتبوا النص، حرر كل منهم شيئا آخر!

أردف شخص ملتح جالس على الأرض أمام طبق به ما لذ وطاب من الطعام:

– إن أبنائي ليست لديهم مثل هذه الأفكار.

– ماذا تقول! إنك تعلم الرياضيات، وترغب في أن يكون للصغار نفس الأفكار!

وانطلق الجميع في الضحك. لابد أنهم يضحكون كثيرا.

قالت "فلورانس":

– هيا إلى النوم يا صغار.

– اتفقنا.

هكذا أجاب ثلاثة صبية في جينز، وقد أمسك كل منهم بأحد الصغار الذين كانوا يتعرجون بين الموائد. وبلا اعتراض ودون إصدار أي صرخة، غادر الصبية الثلاثة الغرفة مع والديهم.

حزنت "سابين" عندما رأتهم ينصرفون. هي أيضا كانت تتمنى أن يكون لها أطفال من "چوليان". لكن– من الآن فصاعدا– أولاد "چوليان" – إذا كان له أبناء ذات يوم– لن يكونوا أولادها أيضا.

أردفت "فلورانس" وهي تقترب من "سابين":

– يبدو أنك متعبة. سأخدمك، سأقدم لك الوجبة. بعد ذلك اطلبي منا ما ترغبين وسوف نسعد بالتحدث عن خبراتنا هنا.

استسلمت، سعيدة بأنها اشتركت هكذا في هذه السهرة. وعن يسارها كان شابان آخران يتناقشان في السياسة، وثلاث سيدات جالسات على شكل دائرة بعيدا بعض الشيء يتحدثن عن التنس.

كيف تستطيع إذن أن تعيش هكذا دون أن تتساءل عن أمور أساسية إلا التي كانت تلاحقها منذ عامين؟ ثم أتى "بيرتراند" وزوجته لكي يجلسا بالقرب منها. تحدثا عن حياتهما، علاقتهما الطيبة بالجيران، متعتهما بالحياة في ملء المدينة العربية والاستمتاع بشرفتين وسطح يصلح لحمامات الشمس والسهرات الرطبة في الصيف.

– إننا سعداء جدا.

– إنه شائق أيضا.

– لقد اكتشفنا ذلك..

مزيد من الإكرام إلى "تونس" وإلى الحياة أيضا، حياة سهلة وهادئة بين الناس الذين يحرصون على روابط الحب والصداقة بينهم، والذين يتممون عملهم خاصة عمل المعلم بكل إخلاص ومن أعماق القلب. بالنسبة لهم جميعا، كان لا يمكن حدوث أي شيء في مدينة "جفصة". لكن لماذا إذن تجول فيها "فيصل" متخفيا؟ ولماذا أشار إليها بأن تصمت؟

– هل ترقصين؟

الذي تقدم لها هو مدرس الرياضيات الملتحي. نهضت "سابين"

وتبعته إلى شرفة قد حولت إلى حلقة رقص.

– إن مهنتك مثيرة، ويسعدنا كلنا أن نقرأ لك. هل تعلمين ذلك؟! أتعشم أن تكتبي عنا في تقريرك.

أجابته "سابين" مؤكدة، وإن كانت غير واثقة بإمكانها الحصول على خط لـ"باريس" لكي تملي بيانها:

– بلا أدنى شك.

كان هذا الملتحي لا يجيد الرقص. لاحظت "سابين" ذلك في ضيق، لأنها تذكرت "جوليان" في الحال وخروجهما، معا والحفلات التي حضراها معا...

سألها الشاب الملتحي:

– ربما أتسبب لك في ضيق؟

– لا. لا.. لا.. أبدا..

هكذا أجابت "سابين" التي كانت قد فقدت حبل الحديث.

– إن كلماتك شائقة! إني أسجل في ذهني، وهذا يمنحك إحساسا باني...

– إذن سأواصل حديثي. يوجد صغار لا يتناولون اللحم سوى مرة واحدة في الشهر، من هنا...

وكلما مرت الساعات رويدا رويدا استعادت "سابين" جزءا من شبابها وقوة حياتها مما لاقته من مضيفيها ومدعويهما من مرح. ولكي تشجع هذا التغيير، لم ترفض تناول الشراب أيضا. إن الحياة مع أولئك الناس بسيطة وجميلة. وها هي "سابين" وجدت– منذ ساعات– أن الرقص والموسيقى والمرح البريء الخالي من أي ادعاء، كل ذلك يشكل أسلوب حياة ممتعة.

سئلت أيضا عن تفاصيل مهنتها. وعلى الرغم من اقتناعها التام أعطت تفصيلا كله حماس عن حياة الصحفي، وبالتالي ازداد تقدير الملتحي لها. بعد ذلك قاموا برقصة جماعية، ثم أتى "بيرتراند" – وهو رب البيت– ودعاها...

شعرت "سابين" بالارتياح بين هذه الصحبة المرحة، وكفت عن

التفكير في العودة. وفي منتصف الليل، وصل مدعوون جدد. إنهم تونسيون هذه المرة. فأسرعا بتقديم "سابين" لهم.

قال أحدهم وهو رجل في الأربعين من عمره:

– لم أكن على علم بوجودك في "جفصة". لقد أخبرتني الآنسة "ليلى شكري" التي تعرفينها بأنك ستحضرين لمقابلتي الأسبوع القادم.

نظرت إليه "سابين" دهشة وأجابت:

– إنك أحد أصدقاء "ليلى شكري"؟

– أنا رئيس مجلس محلي المدينة في "جفصة".

واجهت "سابين" صدمة. قد يكون هذا الرجل على علم بكل ماضيها. هل سيلمح بذلك علنا؟

واصل كلامه:

– على أي حال، أنا تحت أمرك بدءا من يوم الاثنين.

ولما تزاحم عليه بقية المدعوين، ابتعد عنها. كيف تتصرف حتى تتمكن من الحصول منه على أكبر قدر من المعلومات خلال السهرة؟

أما "فلورانس" التي كانت قد أجادت إعداد الشاي بالنعناع، فقد قامت بتقديمه من جديد لمدعويها الذين قدموا لها تهانيهم فكانت تستقبلها في افتخار.

– إنها إحدى الجارات التونسيات التي علمتني طريقة إعداده لأني كنت لا أعلم أن الشاي يغلي قليلا، ثم أضيف النعناع الطازج في اللحظة الأخيرة.

توجهت "سابين" – وكوب الشاي بيدها– نحو الرئيس الذي كان يتحدث في حماس مع ثلاثة أشخاص يستمعون إليه بانتباه. انضمت إليهم وجلست على السجادة.

كان يقول لهم:

– سوف نعطيكم القاعة الكبيرة قاعة الحفلات. بذلك يسهل عليكم إعداد مسرح وكذلك كواليس أيضا.

قال أحد المعاونين ملتفتا إلى "سابين":

– إننا نهدف إلى تقديم مشهد مع تلاميذ كل مدارس المحافظة، وسنقوم بذلك في عيد الفصح. وها هو السيد يمنحنا المكان وأيضا بعض الفنيين.

سألته "سابين":

– وما هو موضوع المسرحية؟

– البخيل لـ"موليير".

أجابها الموظف التونسي مبتسما وأضاف:

– وسوف يتم تقديم أحد المشاهد باللغة العربية.

أضاف أحد الفرنسيين:

– من الممكن التعبير جيدا عن "موليير" بهذه اللغة.

كان هذا الحديث عند "سابين" قليل الأهمية بالنسبة لما كانت تتمنى الحصول عليه من الرجل الذي لا شك في أن بين يديه ملف الفتاة الصغيرة المولودة في "جفصة" قبل ذلك بخمسة وعشرين عاما... وقفت حينئذ تتطلع بعمق إلى هذا الوجه المبتسم المرح... ترددت مرة أخرى في وضع سؤال مباشر. ثم فجأة كان هو الذي مال عليها وتمتم:

– لا شك في أنك هنا لمقابلتي؟

– بالتأكيد نعم. على أي حال، لقد توجهت صباح اليوم إلى البلدية وكانت الأبواب مغلقة...

أجابها مبتسما:

– كما هو المعتاد كل يوم سبت، وأعتقد أنك ترغبين في الحصول على المعلومات بفارغ الصبر.

نهض وهي كذلك ثم قادها سرا إلى إحدى الشرفات، أردفت:

– كنت أتمنى عدم مضايقتك خلال هذه السهرة.

– لقد أفهمتني "ليلى شكري" أنك لن تطيلي البقاء هنا، وأن عملك يستنفد معظم وقتك؛ لذلك تفحصت ملفك ونقلت كل المعلومات إلى الآنسة "ليلى شكري" في "تونس". والمفروض أنها سوف تتصل بك هذا المساء.

– لقد اتصلت هاتفيا أثناء تغيبي، من أجل ذلك مازلت لا أعلم شيئا عن ظروف مولدي.

– في إمكاني أن أخبرك.

وفي نفس اللحظة سمعت أول طلقات نارية.

الفصل السابع

في الحال صمتت الجلسة فجأة، والجميع أرهفوا السمع جامدين، غير مصدقين. هل هو قدوم العاصفة الرملية التي فاجأتهم؟ وإذا بهبوب عاصفة تهز زجاج النوافذ المفتوحة. ولم يجرؤ أحد على الحركة أو الصراخ، وتكاثرت الطلقات الآن. كانت "فلورانس" هي التي أثارت الخوف بلا داع عندما أسرعت إلى زوجها، وصاحت:

– ابتعد عن النافذة، ابتعدوا جميعا، هيا بنا إلى المنزل لنصعد إلى الطابق الثاني!!

قال الملتحي دون أن يغادر الشرفة.

– لابد أنه انفجار، حادثة.

– لا تخافوا. أعتقد أنها طلقات بنادق. يحدث شيء ما. ينبغي الاتصال هاتفيا بالشرطة.

هكذا أكد "بيرتراند" في محاولة لإعادة الهدوء.

وفي الطابق الثاني، استيقظ الأطفال فزعين، وأخذوا يبكون. فما كان من ثلاثة من الكبار إلا أن أسرعوا على السلالم يصيحون بكلمات مطمئنة.

أما "سابين" فقد فهمت فجأة أن الأحداث المتوقعة من المتوقع حدوثها في الدقائق القريبة. لذلك يجب الاتصال بـ"باريس" بأسرع ما يمكن. وكان أول من اتجه نحو باب الخروج هو رئيس مجلس محلي المدينة، وبذلك لن يجد الفرصة للإدلاء لها بأي معلومة. لقد رأته يخترق الحديقة مثل السهم. لا شك في أنه تحقق هو أيضا من اقتراب الخطر. ها هم مجتمعون الآن في الصالون والأطفال الثلاثة– بين أذرع الأمهات– أخذوا يبكون معا. وكان

وجود أولئك الصغار يدفع الكبار إلى الحصول على رباطة جاشهم، لكنهم كانوا كلهم شاحبين. فجأة توقفت أصوات إطلاق النار.

عاد "بيرتراند" إلى الصالون معلنا:

– على ما يبدو أن كل رجال الثكنة قد توجهوا إلى هناك؛ لأنه لا يوجد أحد يرد على التليفون.

أردف مدرس الرياضيات وقد أثاره هذا الخوف:

– الجميع في الشارع يصرخون والناس ينادون بعضهم البعض.

قالت "فلورانس":

– قد يكون رجلا مجنونا. حدث ذات مساء في "ڤرساي" – عندما كنت فتاة صغيرة– أن بواب عقارنا كان قد قام بذلك. إذ إنه كان يطلق الرصاص في الشارع، ولم يتمكنوا وقتئذ من القبض عليه إلا في صباح اليوم التالي.

فكرت "سابين" في "فيصل" وفي التحية المرحة التي ألقى بها إلى صديقه، عندما انطلقت السيارة: "إلى اللقاء قريبا في "جفصة"!" هكذا كان قد صاح. ثم أعلنت في ثبات:

– قد تكون محاولة لانقلاب الدولة. هل يوجد تليفون في الحجرة الداخلية؟

– نعم.

أجابتها "فلورانس":

– سأحاول الاتصال بـ"باريس".

خرجت من الحجرة. وإذا بصيحات فزع تملأ الشارع في هذه الأثناء.

بدأت "سابين" تدرك أن أحداثا ملحة موشكة أن تحدث في الدقائق القريبة؛ لذلك يجب الاتصال بـ"باريس" باسرع ما يمكن. وطلقات البنادق عادت أكثر قوة.

تمكنت من الاتصال بالجريدة بلا صعوبة على الرغم من هذا الموقف المفزع. لا شك في أنه قد تم إصلاح الخط التليفوني أو أصبح من ذلك وباحتمال أكثر.. كان عامل السويتش في "جوجورتا بالاس" هو الذي

كان قد قطعه.

– اطلبي "نيفتا" في الحال.

هكذا صاح "ديڤيڤييه" وقد أثارته الأخبار غير المؤكدة من قبل مراسلته الخاصة. سارسل لك أحدا باسرع ما يمكن. اذهبي لمشاهدة ما يحدث. يجب أن تكوني على اتصال.

اتصلت "سابين" في الحال بـ"صحراء بالاس" وهو مقر إقامة رئيس الدولة الذي يقضي فيه إجازته.

أجابها موظف السويتش:

– اطلبي غدا، الرئيس يستريح الآن، وهو غير مستعد للاستقبال.

ألحت "سابين":

– لكن الموقف خطير، لابد من ملاقاة الرئيس والقيام بإجراء حوار معه أو مع رئيس مكتبه.

لكنه كان قد خفض السماعة. كان لابد لها من أن تعيد الاتصال بـ"باريس". غير أنه كان ينبغي أن تحاول تفهم الموقف جيدا قبل القيام بذلك. ومن البديهي كان الموقف قد ازداد خطورة عندما عادت إلى الصالون. كان الرجال يعملون على وضع الوسائد أمام النوافذ. وكان الزجاج قد كسر وحطامه ملأ المنزل.

حينئذ صاح الملتحي:

– لقد تم الهجوم على المدينة! إنها قذائف والكل تجمعوا في الحجرات التي تطل على الأفنية.

اتجهت "سابين" نحو إحدى النوافذ. اضطرت هي أيضا إلى البقاء على السجادة، عندما شعرت بأن إطلاق النيران قد تزايد. ثم أعلن "بيرتراند" وكان ممسكا بيد زوجته:

– مستحيل أن نتحرك. ليتنا ننتظر قليلا.

اتخذت "سابين" قرارها. يجب محاولة الحصول على رؤية أكثر وضوحا للحي. من أجل ذلك عليها الوصول إلى السطح مهما كلفها الأمر.

– إلى أين تذهبين يا آنسة "ريڤيير"؟

هكذا صاحت "فلورانس" فأردفت:

– عودي!

لم تجبها "سابين"، لأنها وصلت إلى الطابق الثاني، ودخلت إلى أول غرفة قابلتها بمحض المصادفة. هناك تقدمت نحو أعلى نافذة، شعرت بأنها في أمان. وكان يبدو لها أن أصوات البنادق تأتي من اتجاه مضاد.

كان يلزمها عدة دقائق حتى تتمكن من الاقتراب من زجاج النافذة.. ولكي تلقي نظرة على الشارع الضيق، اضطرت إلى التعلق بالإطار حتى لا تسقط: كانت هناك ثلاث جثث في الفناء المجاور واثنتان أخريان في الشرفة.

تواجدت– دون أن تدري– في الطابق الأسفل، حيث يوجد التليفون.

ها هي أصوات القتال تتزايد. كان– من البديهي– أن يقاوموا في المدينة بالأسلحة الحربية العادية والصواريخ. العملية جادة. سألها "ديفيفييه":

– وما هي حالة الموتى؟

– حالتهم؟ إنهم موتى هذا كل ما في الأمر..

استطرد المدير في ضيق:

– ليس هذا ما أقصده. إنما أرغب في معرفة ما يرتدونه. وإذا كانوا شبانا أم شيوخا، وهل من بينهم نساء؟

شعرت "سابين" بالحزن عندما خفضت السماعة للمرة الثانية. إذا كانت مهنتها ستعمل يوما ما على تحويلها إلى إحدى عشاق الكوارث، وإذا كان لابد لها من أن تتعلق ذات يوم بتفاصيل مستفزة حين يختص الأمر بموت الرجال، فمن الأفضل أن تقدم استقالتها فورا إلى "ديفيفييه"!

وإذا برصاصة تخترق أحد الجدران بالقرب منها، في هذه اللحظة بالتحديد. ابتعدت وهي تكتم صرخة. ولأول مرة منذ بداية الأحداث، أدركت أن حياتها معرضة للخطر. وحتى ذلك الحين لقد عاصرت "سابين" هذه المدفعية وكأنها نوع من الكابوس لا يهمها. وفجأة عادت إلى ذاكرتها. لا شك في أنه حاول إخطارها عندما أنذرها بألا تغادر

الـ"چوچورتا بالاس". والآن ها هم الجميع ممددون على الأرض والأطفال ملتصقون بأذرع الأمهات وقد كفوا عن البكاء.

عندما شاهد الملتحي "سابين" وهي تدخل سأل:

– هل اتصلت بـ"چوچورتا بالاس"؟

– لا، لكني أخطرت "باريس"، لقد ساورتنا الشكوك منذ عدة أيام. إنه هجوم ليبي. من المحتمل أن يكون ذلك.

– في النهاية لن يقتلوا كل السكان واحدا واحدا..

هكذا صاحت سيدة شابة، وقد بدت في أشد حالات الثورة.

صاحت "فلورانس":

– الجيش؟ لدينا ثكنات في المدينة!

أجابت "سابين":

– لقد تحرك الجيش منذ يومين. إننا معرضون للبقاء هنا فترة ليست بالقليلة إلى أن تأتينا نجدة.

إزاء هذا التوتر، رأت أن وضعها كصحفية يمنحها شيئا من السلطة؛ لذلك عملت على طمأنة من هم من حولها وإرشادهم بألا يخرجوا إلى الشوارع.

قال "برتراند" مؤكدا:

– توجد مدفعية على الأسطح، وقد يوجد أيضا على سطحنا لأني سمعت أصوات عدو أعلى رءوسنا!

ها هو الصالون– الذي كان منذ ساعتين هادئا ومرحا– قد أصبح أشبه بـ"رمث" يحمل بعض الغرقى.

– يجب عليّ محاولة الحصول على بعض المعلومات الأكيدة. أنا لا أستطيع البقاء معكم. سأحاول الصعود إلى السطح.

قال الملتحي وهو ينهض لاختراق الحجرة:

– سأرافقك.

وبعد ذلك ارتفعت صيحات الفزع. لقد اخترقت رصاصة الزجاج واستقرت في الحائط المواجه. لحسن الحظ تجاوزت رأس أستاذ الرياضيات

بضعة سنتيمترات. كان هذا الأخير قد شحب لكنه لحق بـ "سابين" في الدهليز. قالت:

– إني مضطرة لان اقوم بواجبي، لكن من الافضل ان تبقى انت هنا..

– من تعتبرينني؟ لن ادع سيدة تبدو اكثر شجاعة مني!

– ليست شجاعة. ليس لي الاختيار. إنهم يعطونني أجرا حتى اتواجد في مكان العمل وأحاول رؤية الأمور في أعلى درجاتها...

– لا تلحي– هكذا أعلن لها المعاون الشاب– إني افضل الموت على خيانة ما أنا مقتنع به! هيا نصعد بالسلم. بذلك نشاهد جيدا.

نهضا بسرعة، لان هذا المكان من المنزل محمي بسمك الجدران. اختارا التوقف لحظة، حتى يتحققا أولا من أن السطح لا يشغله رجال المدفعية كما توقع "بيرتراند".

تمتم الأستاذ مدرس الرياضيات:

– لا سبيل للسماع. إن هذه الأسلحة مثيرة.

– لم يسبق لي سماع هذه الضوضاء عدا في أفلام الحرب.

– ولا أنا!

ثم تمتمت "سابين":

– لقد خرج الناس إلى الشوارع بدلا من البقاء في منازلهم. سيكون عدد الموتى كبيرا جدا مع هذا التصرف.

– اتعتقدين ذلك حقا؟

لاحظت "سابين" والدموع في عينيها:

– هناك خمسة في الجانب الآخر من المنزل، وليس لديهم سلاح، لقد سقطوا مثل الذباب.

– لا شك في انهم ظنوا انها الثورة، لانهم– من شدة فاقتهم– يتمنون اي تغيير حتى لو كان إلى الأسوا!

– إنك تعلمين مشاكل المنطقة جيدا. اليس كذلك؟

– نعم لدي أصدقاء تونسيون كثيرون.

– الآن، عليك أن تساعدني على التسلق– هكذا عرضت عليه

الفتاة– سالقي نظرة سريعة وانزل ثانية في الحال.

– لكن لماذا تحاولين الصعود إلى السطح؟ إنه المكان الاكثر خطورة.

– لاني منه أتمكن من مشاهدة كل المدينة وأيضا الثكنة. وهي الوسيلة الوحيدة لتقدير خطورة الموقف.

كانا يتحدثان بصوت عال أكثر فاكثر لكي يسمع كل منهما على الرغم من أنهما قريبان من بعضهما، لان المدفعية كانت قد اشتدت.

اقترب الشاب من المنور الذي يفتح على السطح وشبك يديه. لم تتردد "سابين" إلا ثانية واحدة ومستندة بمرونة– وصلت إلى الإفريز. وفي الحال شاهدت طائرة هليكوبتر. من هناك أيضا تمكنت– عندما تقدمت بحذر من حافة السطح– من إلقاء نظرة في اتجاه المعسكر. وفي الفناء حدث شيء ما مفزع. أجسام ملقاة على الأرض، وعلى الأسطح المحيطة رجال يقومون بالمراقبة. وإذ ارتبكت "سابين"، قفزت إلى الأرض بالقرب من رفيقها. ثم تمتمت:

– لقد قتلوا كل الجنود! إنها مذبحة.

سالها الملتحي:

– ماذا شاهدت؟

وضحت.

قال في ريب:

– ساذهب لارى.

لا شك في أنه ظنها تبالغ في تصعيد الموقف.

– خذ الحذر جيدا.

غير أن أستاذ الرياضيات، كان قد قفز بمرونة أخاذة ونزل على السطح. رفعت "سابين" – عاجزة– عينيها نحوه. وكانت الضوضاء المحيطة بهما تحول دون اتصالهما بتبادل الكلام. على الرغم من أن هذه المسافة قصيرة جدا.

ظل الشاب هكذا، نحو خمس دقائق وقدماه في الفراغ ونصف جسده راقد على السطح. ثم اقتربت فجاة أصوات الرصاصات. رأت "سابين" الساقين الطويلتين ترتطمان بالحائط ومن بعدها نزل الملتحي سليما معافى.

الحا: 654 ملزمة 4 قفا

– لقد أخفتني...

لكن الملتحي شحب. وأخذ يشرح الموقف بالإشارات أكثر من أن يتحدث.

– يوجد العديد من رجال المدفعية على الأسطح. إننا محاطون. لقد دفعوا بالجنود من نوافذ الثكنة. إنهم في كل مكان، في المنازل... إننا نخاطر بتواجدنا هنا أكثر من أن نرحل...

"لا تغادري الفندق قبل أن تشاهديني" هكذا كان قد أوصاها "جوليان". لكن لماذا لم يوضح أكثر من ذلك؟

قالت "سابين" وهي تغادر رفيقها:

– ينبغي إخطار أكبر عدد من الناس مادام التليفون غير معطل.

صعد معها درجات السلم المؤدي إلى الطابق الأول. صاح الملتحي:

– عودوا إلى الداخل، واتركوا هذا الصالون. إننا محاصرون. إنهم الليبيون. إنهم مسلحون ومزودون بالقنابل أيضا..

لاحظت "سابين" في اطمئنان أن الخط التليفوني مع كل هذه الفوضى عمل بانتظام. طلبت الـ "جوجورتا بالاس".

سألها موظف الاستقبال:

– إنك الصحفية؟ إذن أنت لست ميتة؟

استطردت "سابين":

– لا، لم أمت بعد. من أخبر بذلك؟...

– الشخص الذي حضر لأخذك.. يقول إنه زوجك... لم نتمكن من إحاطته علما بمكان تواجدك... على ما يبدو أنكما مستهدفان؟

أعطته "سابين" عنوان إقامتها وحاولت منحه بعض التفاصيل.

– لدينا هنا أمر بألا ندع أحدا يرحل. ولقد وضعنا كل الحجرات تحت أمر الوافدين من "جفصة". هناك جرحى...

– إذا رأيت السيد...

– بالضبط، لم نتمكن من احتجازه. بما أن معه جواز سفر سياسيا... لم أجرؤ...

– إذا عاد فاعطه عنواني، أخبره بأن الموقف متدهور.

– الكل على علم بذلك. لقد وصل بعض المقاتلين بالطائرة.. الحال هنا أكثر هدوءا. لقد مروا بمكبرات الصوت. إنهم لا يرغبون في الإساءة إلى أحد...

خفضت "سابين" السماعة ثائرة. ما الذي عمله "جوليان"؟ أين هو الآن في هذه المدينة!

ثم ذهبت لكي تلتقي بالآخرين وسط المنزل. كانوا كلهم منبطحين وقد بدوا فزعين. لم تر مدرس الرياضيات.

– قال إن أحد الجرحى على السطح.

هكذا وضحت إحدى السيدات وكانت تعطي رضيعها البيبرونة، وكانت قد وضعته على السجادة، وعملت على حمايته بجسمها... وكان عاصفة رهيبة هبت في هذه الفيلا المرحة. حينئذ قررت "سابين" الذهاب إلى الملتحي العنيد وأن تمنعه من الصعود إلى السطح.

عندما وصلت إلى الحجرة الصغيرة في الطابق الثاني، كان الوقت متأخرا. لقد أثبتت الفتحة المتواجدة على المنور- بما ظهر من خلالها من بروق- أنه ارتكب حماقة بخروجه... جريح.. فكرت في "جوليان" لو كان هو الذي أصيب في أحد هذه الشوارع الصغيرة، ألن تذهب لكي تنقذه؟ وبدون تفكير نزلت ثانية لكي تتناول مقعدا من المنزل وتضعه أسفل المنور في محاولة لرؤية الملتحي... وكان شبحان يتحركان في الضوء الخافت. قالت:

– عد بسرعة.

لكن من يسمعها وسط هذه الضوضاء الصادرة من القنابل ومن طلقات البنادق وصيحات غير مميزة. استندت إلى حافة السطح، وارتفعت بمجهود غير متوقع، وتمكنت من أن ترقد على الأرض. كل الأضواء مطفأة في الثكنة. أخذت المدفعية تصوب طلقاتها نحو غرب البلد. ولقد كف التصويب تجاه الشرفة. ربما أن الشخص الملتحي وجد أنه من الحكمة الاستفادة من هذه اللحظة لإغاثة الجريح. لن تظهر أكثر جبنا من الشاب. إن آل "بيمورينس" لا يخافون أبدا. وبدون تفكير

تسلقت بشجاعة نحو الشبحين في هذه الليلة المشؤومة.

– إنه مصاب في ساقيه. سوف نستطيع معا نقله إلى المنزل. كان يتكلم وهو يميل على أذنها. لقد اعترفت له بالجميل لأنه لم يدهش لوجودها على السطح.

تمتمت:

– إنه يفقد دماءه.

قالت هذا عندما شعرت بسائل تحت يدها. حينئذ بدت الطائرة الهليكوبتر!

صاحت من فرط الفزع. ألقى الملتحي بنفسه عليها وألقى بها على الأرض، بينما أغرقهما كشاف بضوء شديد. مرت الأحداث سريعة جدا. وإذا بجنديين يهبطان على السلم المكون من الحبال مع نقالة.

أعلنا:

– الصليب الأحمر! استمروا في الرقاد:

قال الملتحي معترضا:

– يوجد بالمنزل نساء وأولاد!

شعرت "سابين" بأن يدين قويتين تمسكان بها، حاولت أن تقاوم خوفا غير مسبب أكثر من أن يكون الخوف الواعي. ثم رفعت بواسطة الحبل المستخدم كسلم، خلف الجريح الذي ربط بالحبال على النقالة. استعادت– في ظرف ثانية– رؤية مشاهد أفلام كانت قد وصفتها بأنها مبالغ فيها. إن الحياة كفيلة بتقديم مفارقات عنيفة بين الحقيقة والوهم.

ولقد حملتهما الطائرة الهليكوبتر في ليلة جهنمية، وكانت الرصاصات مازالت تدوي أسفلهما شاهدت أيضا كشافات سيارات حربية، وحريقا شب تجاه غرب المدينة.

جلست "سابين" القرفصاء بالقرب من النقالة حيث كان يئن الجريح. كانت لا تجرؤ على النطق بكلمة أو توجيه سؤال أو حتى القيام بحركة، وكان الجنديان هما اللذان يقومان بتحريك الجهاز. هي والجريح كانا الراكبين الوحيدين.

أتتها فكرة بالنسبة لمديرها! كان سيفخر هذا المسكين "ديفيفيبه" المتعطش للدماء وللجرحى وللمشاهد التي تفيد في انتعاش بيع جريدته، عندما يعلم أن مراسلته الخاصة تحلق في الجو بين الرصاص. أخذت تضحك بجنون في عصبية، لقد عملت هذه الساعات التي مرت في خوف بلا داع إلى إلحاق الغم بها. لقد أدركت أن دورها ليس في حصر عدد الجرحى، إنما في مساعدتهم. لن تصبح بعد الآن صحفية، لن تكون لها بعد الآن تلك النظرة غير المبالية للعالم. وإذ حدث أنها سعدت بلقاء "چوليان".

وعندما انتقلت من الضحك إلى الدموع، انتحبت، منهكة، محبطة وبداخلها اقتناع بأنها فقدت كل الفرص لنسيان زوجها والبدء في حياة جديدة.

بزغ الفجر تدريجيا تحت الهليكوبتر. وكلما كان الجهاز يخرج هكذا– كما بحركة سحرية– من الظلام، كانت "سابين" تتمكن من حبس دموعها. وإذا بالجريح يتحرك، واضعا يده على ذراعها. فما كان منها إلا أن أمسكت بيد الرجل وشدت عليها في هدوء قالت بالعربية:

– لا تقلق، سيعملون على إسعافك.

حينئذ رفع الرجل جزءا من البرنس الذي يغطي وجهه. غير أن ملامحه المتقلصة من الألم لم تمنع الفتاة من معرفته.

– "فيصل"!

وضح:

– عندما علمت أنهم قد يقتلون ذوينا أردت أن أتوجه للإخطار. لم يكن متوقعا أن الليبيين سيخونوننا!

سالت الدموع على وجه "سابين"، وفي ارتباكها عجزت عن النطق.

واصل الفارس الشاب:

– لماذا تصرفوا على هذا النحو؟ لماذا؟ والآن ها نحن الخونة! ما القول؟

– إنك لم تكن مسلحا يا "فيصل"، ليس من يلومك ولا يستطيع لومك...

– لقد كنت معهم. وكل شيء سمع على نحو آخر. لقد قتلوا إخوتنا. وجنودنا، جنود الثكنة! كلهم! لقد ماتوا كلهم!

لم تعد أصوات المعارك تسمع بعد وإذا بأضواء وردية تملأ السماء. لقد تواجدت جالسة بجوار هذا الجريح الذي يبكي على بعد عدة كيلو مترات من بلدها، من زوجها... لكن هل ستعلم ذات يوم ما هو بلدها؟ وهل ما زال لها زوج؟

اعترتها مرارة عظيمة، يجب أن تعود إلى "فرنسا" وأن تواجه الضروريات اليومية اللازمة لحياتها كفتاة تحيا بمفردها، لا.. لن تقبل أن يحفظها أحد عن شفقة.. أبدا، إن آل "بيمورينس" لا يقبلون الشفقة من أحد منذ أجيال آل "بيمورينس".

هبطت الطائرة الهليكوبتر عموديا نحو مطار "توزير". وكانت "سابين" مازالت ممسكة بيد "فيصل". كانت تعاني ألما في قلبها، وعيناها كانتا مغرورقتين بالدموع مثل عيني الجريح.

الفصل الثامن

وبسرعة نقلت النقالة بواسطة اثنين من الجنود كانا قد قفزا إلى الأرض. وبعد ذلك التف حول "سابين" فريق من المدنيين. سألوها:

– هل أنت معاونة؟

وضحت لهم موقفها. سألها أحد الرجال:

– ألم يقترحوا عليك النزول في "جوجورتا بالاس"؟

– لقد استقبلت في نفس الوقت الذي استقبل فيه أحد الجرحى. لا شك في أن حالته كانت تستدعي تدخلا سريعا، لأنه أصيب بعدة رصاصات وهو ينزف بغزارة.

– سنعمل على إعادتك. ينبغي أن تأتي معنا. إنهم العسكريون الذين يحكمون المنطقة في هذه اللحظة. هل أنت صحفية فرنسية؟

– إنها الحقيقة التي أدليت بها لكم. وها هي بطاقتي.

رافقت "سابين" الرجال الخمسة الذين كانوا يحيطون بها نحو مبنى المطار. هناك طلب منها أحد الضباط– وكان جالسا أمام مكتب صغير– أن تظهر أوراقها. ولم يكن بشوشا، إذ سألها في جفاف:

– لماذا كنت في "جفصة"؟

قالت وقد حرصت على أن تكون حيادية بحيث لا تؤذي أحدا:

– كنت أرغب في الذهاب إلى "جامامية"، لكن سيارتي تعطلت. لذلك فضلت الصعود نحو "جفصة" للقيام بتقرير صحفي.

– ليس في استطاعتي التصريح لك بالانصراف قبل أن أتلقى أوامر بذلك. ستلحقين بالآخرين هناك حيث يتم وضعكم في قاعة الإقلاع.

– أرغب في الاتصال بـ"باريس".

– حاليا مستحيل. مازالت المعارك مستمرة في "جفصة"، ولقد عثرنا على بعض المتمردين في الجبال المجاورة.

ثم أضاف في قساوة:

– الموقف جاد جدا.

وإذ ساورتها بعض الشكوك، أجابت "سابين":

– لقد تحققت من ذلك.

– ومن جانبنا، إننا لا نرحب بتدخل الصحفيين في شؤوننا!

تركت الصحفية المكتب دون أن ترد. وكانت إلى حد ما غير نادمة على عدم لقائها بمديرها، لأنه لن يغفل عن أن يطلب منها مقالا عن الأحداث.

انضمت في القاعة المعدة لهم إلى تونسيين وفرنسيين، البعض وافدون من "جفصة" والمنازل المحيطة، والآخرون أفواج رحلات منظمة. وكان بعضهم يحاولون أن يعترضوا.

– إننا نرغب في العودة. لا يعقل أن الوكالة لا تعيدنا في الحال إلى "تونس" – هكذا صاحت شقراء رائعة في شورت قصير جدا– إذا كنا لا نستطيع زيارة الواحات.

– كما أننا نخاطر بحياتنا إذا مكثنا هنا. وإذا احتلت "تونس" سنتعرض لأن نكون رهائن! وبذلك يكون موقفنا صعبا.

هكذا أضافت سيدة متوسطة العمر.

أما "سابين" فقد ذهبت لكي تجلس بالقرب من الفتحة الزجاجية وجلست على الأرض. بدأت تشعر بعواقب كل هذه المؤثرات. فجأة دخل أحد الرجال العسكريين إلى القاعة وأعلن:

– الآنسة "سابين" ريفيير"!

– إنه أنا.

– إن البحث جار عنك منذ مساء أمس. لقد أعلنتك الصحيفة التي تعملين بها لدى وزارة الإعلام. اتبعيني.

بدأت "سابين" تطمئن على أمل أنهم سوف يصرحون لها بالعودة إلى "تونس". بالتأكيد رئيسها ليس على قدر كبير من الفظاعة مادام قلقا عليها، رسميا بناء على ذلك عانت طوال الليل من تأنيب الضمير بقسوة.

سألت الضابط الشاب:

– إلى أين تصطحبني؟

– سنقدم لك قهوة ساخنة ووجبة. لقد وصلنا أمر. يجب أن نسلمك إلى شخص دبلوماسي فرنسي.

– أين هو؟

– إنه في انتظارك في "توزير".

– في "توزير"؟

– لقد وصل في الليل.. لقد صدر الأمر منذ ثلاث ساعات. لقد احتجزناه، لكن كل الأمور قد استتبت. وعلى أي حال، كل الطرق المتجهة نحو "تونس" مغلقة.

– هل في إمكاني الاتصال بـ"تونس"؟

– أكرر لك أننا معزولون. ما عليك إلا أن تتذرعي بالصبر. وعن قريب سيكون الموقف في أيدينا. سوف نسيطر عليه.

ثم جعلوها تصعد إلى سيارة جيب حربية خاصة بالجيش. ثم أتبعوها بأشخاص آخرين. إنهم الفلاحون الذين كانوا يرغبون في استجوابهم عن تحركات الأجانب في مدينتهم. تحدثوا مع "سابين" وقد فوجئوا

بسفرهم مع هذه الفرنسية الشابة التي تتحدث بلغتهم.

فأكدوا:

– لم يحدث شيء عندنا.

غير أنه كان عندنا عدد كبير من الليبيين منذ عدة أيام. إنهم وافدون من "تونس" عن طريق الجو. وليس ما يبرر عدم ثقتنا بهم.

حينئذ صاح السائق:

– اسكتوا! لا يليق بكم إفشاء أسرار الجيش. إنها صحفية. اتخذوا الحذر!.

ابتسم الفلاحون في مودة إلى "سابين" وهم يقومون بحركات تدل على العجز. بعد ذلك اخترقت السماء طائرتان في سلام. وفي الحال هدأت السيارة السرعة.

ثم أعلن السائق في افتخار:

– إنهم ذوونا.

وضاعف السرعة من جديد.

وكانت "سابين" تبحث عن الوسيلة التي تتصل بها بـ"تونس"، ربما يستطيع "جوليان" الحصول على المكالمة، لأنها كانت ترغب في الاتصال بـ"ليلى شكري"، وهي الوحيدة القادرة على منحها المعلومات التي طالما انتظرتها حتى كاد يفرغ صبرها.

أنزلتهم السيارة الـ"جيب" أمام منزل الحزب في مدينة ساكنة حيث يندر تجول الناس. إنها الساعة العاشرة صباحا. كانت الشمس قد ارتفعت في السماء ملقية بأشعتها على النخيل. عندما نزلت "سابين" من الجيب أو بالأصح عندما قفزت خلف رفاقها لم تتمكن من السيطرة على ذهنها بأنها تواجدت وجها لوجه مع "جوليان".

– لقد اتصل بي مضيفوك في "جفصة" بالتليفون (هاتفيا).

– متى؟

– اطمئني، لقد تم ترحيلهم نحو الـ"جوجورتا بالاس". يبدو أنك تستقبلين الجرحى على الأسطح! شيء مؤثر جدا!.

– كان هذا بمحض المصادفة، عندما صعدت إلى السطح للتحقق من الموقف.

ولقد فوجئت بأنها تجيب عن هذا الاستجواب القاسي دون اعتراض، إذ رأت أنه من حقه شرعا أن يقوم بذلك.

– وبسبب خطئك، ها نحن قد حوصرنا في المنطقة ويصبح من المستحيل أن نعود إلى "تونس".

– لكن لماذا؟

– لأنه لا يوجد من يعرف شيئا هناك تقريبا. وسوف تكتم الصحف هذا الأمر إلى أن يستعيد الجيش المدينة ويوقف كل المتمردين. لقد هربوا إلى الجبال، لكنهم مستمرون في القتال. لقد كانوا مسلحين. لحسن الحظ أنهم غير مدربين!

راودت "سابين" فكرة بالنسبة لـ"فيصل" المسكين، المتحمس والساذج في نفس الوقت والذي قد يعاني تأنيب الضمير. هذا إذا كان مازال حيا.

أردفت بصوت خافت:

– أريد أن أتصل بـ"تونس" هاتفيا.

أجابها "چوليان" ساخرا:

– لكي تخطري جريدتك على ما أعتقد. لا شك في أن "ديفيفيه" الكبير قد نفد صبره! حتى إنه بحث عنك رسميا!

قالت "سابين" وقد جرحت أحاسيسها:

– أعلم. ربما أنك ترى أن هذه التصرفات غير صحيحة؟

أمسك بكتفيها ودفعها بعنف إلى الجانب تحت أنظار الرجل العسكري والحاضرين الباقين. وكان يبدو وقد نفد صبره.

– هانا أبحث عنك منذ اثنتي عشرة ساعة. تخيلي على الرغم من أني أوصيتك بعدم مغادرة الفندق!

أجابت وقد خجلت لهذه المعاملة:

– أنا لم أكن هنا كمن تقيم في مكان خلوي كما تصر على تفكيرك في ذلك. وإذا كان قد حدث شيء ما خطير، كان لابد من أن أحاول

معرفته. ومع كل إنك لم تفصح لنا بأي أمر محدد.

– وكيف كنت أستطيع القيام بذلك؟ وكنت قد تعهدت بألا أقول شيئا بالتليفون. لقد فكرت في أنه سوف يكون لديك مزيد من الثقة. لقد تغيرت حقا!

– تغيرت لأني لم أعد وديعة و...

لكنها توقفت والدموع تملأ عينيها. لماذا تتمسك بالعناد؟ إذ إنه من الأفضل لها أن تحاول الحصول على معاونته للاتصال بـ"ليلى".

– لقد أعدوا لك وجبة خفيفة. لقد أبدى أولئك السادة الكثير من المودة والألفة. لقد أيقنت أننا أقارب.

وعندما دخلا معا إلى المبنى الرسمي أقبل إلى لقائهما اثنان من التونسيين.

قال أصغرهما:

– إننا مبتهجون لعثورك على ابنة عمك. كانوا قد أخبرونا بأنك صديق لبلدنا. كنا سنأسف لو كان قد أصابها شيء مؤسف أو مكروه.

قالت "سابين":

– أرجو الحصول على اتصال هاتفي بـ"تونس".

أجاب الآخر بلهجة ندم:

– مستحيل. إن الأوامر رسمية. إن المنطقة معزولة تماما. كما أننا لا نرغب في خلق خوف بلا داع بينما لا يوجد أي سبب للانزعاج.

فكرت "سابين" في العسكريين الذين قتلوا في الثكنة، عندما هوجمت مدينة "جفصة" بالأسلحة المستعملة وهل أن تفاؤل المسؤول مؤكد إلى هذا الحد؟ بل العكس، إن محاصرة المنطقة تماما تكشف عن عدم تأكد وعن دوام احتمال التهديد.

جلس "چوليان" أمامها. وكان يبدو متعبا. كان قد وضع سترته على مسند المقعد وجلس بالقميص الأزرق المكرمش. وكان في مظهره هذا– مع الياقة المفتوحة– يبدو أصغر مما هو، وأكثر رقة. ولقد تأثرت "سابين" على الرغم من التعب.

سألها "جوليان":

– هل هذا مهم؟ إذا كان من أجل طمأنة حبيبك، فلقد تم ذلك إذ إنه، بالنسبة للسفارة، قد تم إخطارها من خلال العديد من الرجال العسكريين في "توزير".

وإذ عاودتها الثورة لاحظت "سابين":

– الأمر الذي يثبت أن الاتصالات لم تقطع. على أي حال. لم أكن أرغب في التحدث إلى الملحق الذي تقصده.

– آسف لكوني ظهرت بعدم الكتمان. إني واثق بأنه كانت لك نيات طيبة، لكن ماذا تنتظرين عندما يجد المرء نفسه في مواقف مستحيلة؟

– ومع ذلك أخبرك بأني لست مسؤولة عن الهجوم على "جفصة" ولست أنا من تسبب في هذا الاغتيال!

– غير أن هذا يمنحك خبرة رومانسية! بلد محاصر، معتدى عليه، جريح تم لقاؤه على شرفة تحت النجوم! شيء رائع يفيد للارتقاء بمهنة صحفية كبيرة. ولما لم تتنبهي كعادتك ولم تفكري لحظة واحدة– بلا شك– في أنه سيكون في ذلك نهاية عملك!

– لم يكن في وسعي القيام بخلاف ذلك!

كانوا قد قدموا لها بلحا، وعصير فواكه، وقهوة، وبعض الزيتون وخبزا خاليا من الخميرة. تناولت باهتمام، وقد خفضت عينيها على الأطباق المختلفة التي كانت موضوعة بها هذه الأصناف المميزة. وإذا به يتمتم فجأة وهو يقترب منها من أعلى المائدة:

– سنهرب من هنا.

ألقت إليه نظرة دهشة.

– كيف؟

لقد بدا في نظرة "جوليان" ما يشير إلى أنه حدد خطة واقتنع بها.

– استمري في الأكل بهدوء. ومن جانبي سابتعد وسآخذ سيارتي. لقد أجرتها صباح اليوم. سنتخذ طريقا سوف يسمح لنا بالعثور على تليفون.

صاحت "سابين":

– آه.. حقا! إنه مهم جدا بالنسبة لي!

قاطعها وقد عاد إلى قسوته:

– لا يهم. التليفون لي بالأكثر، أنا من ينبغي أن أخطر أناسا عديدين، خارج الإطار السياسي.

"إنه يرغب في طمأنة السيدة التي يحبها" هكذا فكرت "سابين". وفجأة بدت لها الحياة– من جديد– كامدة وبائسة؛ لذلك كان لابد من رفض العرض.

وفجأة وبلهجة احتقار على قدر ما تمكنت، قذفته بالآتي:

– من أخبرك بأني سوف آتي معك؟

– أنا لا أطالبك بإعطاء رأيك. إننا هنا في منطقة غير آمنة. كما أننا أيضا سجينان. أنا لا أتوافق أبدا مع هذا الوضع، وأنت ذاتك.

– ليكن..

هكذا قبلت "سابين" التي كانت في الحقيقة لا تشعر بالقوة اللازمة للبقاء مرة أخرى بدون "جوليان".

– إذن ساتركك. ساعد سيارتي واركنها خلف الباب الداخلي سانتظرك هناك. الحقي بي خلال خمس دقائق، وتظاهري بأنك تتنزهين في الحديقة. نفذي ذلك. هذا بالإضافة إلى أنك ممثلة ممتازة، وأؤكد لك ذلك!

ثم خرج غير تارك المجال للاعتراض. وعلى الرغم من هذا التسلط الأخير، كانت "سابين" تعلم جيدا أنها قد تطيعه، كعادتها من قبل؛ لأن وجود "جوليان" بالقرب منها كان يضعها في حالة طاعة إذ إن له هنا تأثيرا ونوعا من المغناطيسية لم تخمد بعد الانفصال.

استمرت في تذوق ثمرات البلح اللذيذة، ثم نهضت في هدوء. لم يلتفت إليها العسكريون ولا المدنيون المجتمعون أمام المبنى لأنهم كانوا يتبادلون حديثا حادا؛ لذلك تمكنت من الاقتراب من الباب الحديدي بلا أي حدث. اجتازت السور بلا تردد، وأغلقت من بعدها البوابات.

أي مسرة غمرتها الآن بأن تتواجد بالقرب من زوجها في سيارة معرضة مع ذلك لأن توقف من حين لآخر من وردية عسكرية؟

اخترقا المدينة ببطء شديد حتى لا يثيرا انتباه المجموعات المتواجدة عند ملتقى الشوارع... وما هي إلا فترة قليلة وإذا بهما ينطلقان بسيارتهما على الطريق المرصوف في اتجاه "نيفتا".

سألته ضاحكة:

– هل سنقوم بزيارة رئيس الجمهورية؟

التفت نحوها، وقد بدا عليه أنه فوجئ بهذا المرح البادي في نبرة صوتها.

– لا.. ليس المجال لمثل هذه اللقاءات.. سنواصل مسيرتنا لفترة طويلة. ومع كل، لقد تدبرت الأمر بوضع زجاجات مياه معدنية وبعض المأكولات في السيارة وكذلك أغطية.

– أغطية؟

– إن ليالي الصحراء باردة!

– لكن في النهاية لن نمر.

خفق قلبها من جديد. إلى ماذا يهدف "چوليان" إذن من هذه المسيرة العجيبة؟ هل حقا لكي يجري بعض الاتصالات الهاتفية؟ لقد ارتبكت "سابين" لفكرة قضاء الليل بصحبة زوجها في الجبل. آه.. لو كانت علمت– على الأقل– من هي في الوقت المناسب، من هي تلك الفتاة الصغيرة المتروكة في مستشفى "جفصة" قبل ذلك بخمسة وعشرين عاما.

هز كتفيه علامة غضب، وعاد إلى صمته مواصلا طريقه دون أن ينطق بكلمة واحدة... لم يفتح فاه طوال الرحلة، وكانت الساعة الأكثر دفئا، فالجو جميل جدا. وليس من ريح على السهول التي اجتازاها.

ثم فجأة اتجه "چوليان" بالسيارة نحو مدق ضيق وصخري. وكان وجهه كامدا. أما "سابين" فكانت تختلس النظر إليه، متأثرة ومطعونة في الوقت نفسه لتصرفه هذا. كان هذا المدق يتعمق في الأرض البور. إنه تغيير اتجاه ملحوظ. إنهما الآن يتجهان نحو الشمال الشرقي.

كانت قمم الجبال تبدو في الأفق، ولا شجرة ولا أثر لعشب، كانت السماء من فوقهما أقل نقاء، وأقل زرقة. وأخيرا أردف "چوليان":

– لم تسبق لي معرفة أنك موهوبة في التمريض.

– في التمريض؟

– نعم.. من تجمع الجرحى من أعلى الأسطح.

وكان على ما يبدو غير جاد– على نحو أكيد– في ملاحظته هذه.

أجابت في صدق:

– لم يكن لي الاختيار.

– لكن غيرك كانوا سيتصرفون بخلاف ذلك. ومع كل، أعتقد أنك قد أحسنت التصرف! ربما أن أرواح آل "پيمورينس" قد ألهمتك!

شعرت "سابين" وكأنها تلقت طعنة خنجر. بالتأكيد لقد تزوج "چوليان" من سليلة آل "پيمورينس". وإن كان لايزال محتفظا بشيء من التقدير فهو نحو آل "پيمورينس"، إلى من ينسب الاستحقاق. ومنذ ذلك الحين، كيف كان سيوافق على أن تكون زوجته وأم أولاده طفلة متروكة في مستشفى؟ نعم لقد أحسنت التصرف بمغادرتها المنزل في تلك الليلة. إذ إن الموقف كان سيأخذ شكل الإذلال، إذا كانت قد اضطرت إلى ترك البيت بناء على أمر من "چوليان".

أجابته:

– أشكرك على هذا التقدير.

ثم أضاف بنبرة أكثر تسلطا:

– حقا، حقا.. على ما يبدو أن الجريح كان فارسا جذابا.

صاحت في غير وعيها:

– كيف علمت ذلك؟

– لماذا؟ هل أنا على صواب؟

علت الحمرة وجهها من الخزي لأنها هزمت. ثم عملت على إلقاء الضوء على موقفها:

– إنه أحد رجال قبيلة "زلاس" وهو معروف في المنطقة. ولا شك أني عملت على إنقاذه من أجل جماله! مادام هذا هو رأيك، فلابد من أن تكون– بالتأكيد– هذه هي الحقيقة!

استطرد "چوليان" بلهجة المصالحة:

– أنا لم أقل ذلك بالضبط، أنا كنت أقصد أن أمزح، هذا لأني لاحظت أنك مكدرة. لكن في الواقع، لقد علمت أن قائد الطائرة الهليكوبتر سقط أثناء عمليات الإنقاذ لأن الرصاصات كانت تنطلق من كل الأسطح.

– الجريح يدعى "فيصل". ومع كل، إن سيارتي كانت قد تعطلت، وهو الذي أشار بأن أتجه إلى "جفصة" لأني كنت متجهة إلى "غاداميس".

– أعلم ذلك تماما. لقد قلقنا نحن و"ويندو" عندما رأينا السيارة على الطريق؛ ولذلك قمنا بالبحث عنك بناء عن نشرة...

– لقد تمكنت من العثور على سيارة وسائق للمجيء إلى "جفصة". وحسبما أعتقد فإن "فيصل" كان قد نظم– جزئيا– هذا الهجوم، لكنه اتخذ مسارا آخر غير الذي كان يقصده...

– إذا كان قد نظم اختطاف الحلفاء الليبيين، فلقد فقد فارسك الجميل، ولم يجد من يضمد جراحه!

هكذا أردف "چوليان" وفي صوته نبرة انتصار.

– إن فرسان "زلاس" يتصدون لكل السلطات. وفي الحقيقة، إني واثقة بأن "فيصل" يحب بلده كثيرا.

هكذا اعترضت "سابين" التي تذكرت اللهجة الآمرة التي استخدمها هذا الشاب إزاء صغار المستحمين في حمام السباحة الروماني– نعم لقد بدا معتزا بنفسه حقا إنه كريم!!

عاد "چوليان" إلى جفافه، وقال ساخرا:

– إنك تعرفين هذا الـ"فيصل" جيدا حتى أنك تتحدثين عنه باسمه بكل الفة. وأنا الوحيد حقا من لم يجد فرصة الاستمتاع بجمال زوجتي!

ثم أوقف السيارة فجأة. أمسك بـ"سابين"، جذبها إليه وقبلها في عنف. اشمأزت "سابين"، إذ أدركت أنها سوف تعجز عن مقاومة ملاطفاته لها. ارتبكت. وأخذت تقاومه ولكن في ضعف. وما هي إلا ثانية وإذا بها تحوط عنق "چوليان".

انتصب في الحال ساخرا. ثم قال في ازدراء:

– إني مبتهج لأني احتفظت بالفرص المتاحة لي، لكن الطريق طويل، ولا نستطيع أن نتأخر.

عبثا بحثت عن رد لاذع، لكنها– وا أسفاه– لم تجد سوى الحب بداخلها نحو هذا الرجل الشرس الذي لم يشك لحظة في أن مأساة قد تبرر رحيلها. لا.. لم يفكر إلا في المغامرة، وفي الفسق. ومن الآن فصاعدا، لم يعد أمامهما مدق، إنما مساحة رملية تغطي الحوادث في سرية.

– لم يعد أمامنا طريق ممهد، بذلك سوف نتعرض للغوص في الرمال! وكيف سنعمل لاستخراج العجلات منها.

– ليس لنا الاختيار. لابد لنا من المرور من هنا. وعندما نصل إلى الجبل، لن نصادف ما نخشاه، عدا المتمردين بالتأكيد، لكن بحسب رأيي إنهم لم يجدوا الوقت اللازم للابتعاد هكذا.

كانت أشعة الشمس تمنح المكان طابع حلم قد استيقظ، وعن اليسار– عن بعد– كان انعكاس وردي يظهر المنازل الخيالية، والنخيل الموجود على مجرى مائي لم يسبق لأي مسافر أن ارتوى منه. وفجأة فرمل "چوليان" مرة أخرى، ومرة أخرى أخذ قلب "سابين" يخفق من الخوف بلا داع، من الرعب ومن الرغبة.

ابتعدت السيارة واستقرت إلى اليسار. سألته:

– ما الأمر؟

– الأمر هو أني لست واثقا بأني سأمر. سنحاول التحقق من ذلك بالقدم. إنه أسلوب حرفي قام بتجربته لكنه حتما معصوم من الخطأ. انزلي معي...

تواجدا– بعد ذلك– وجها لوجه في صحراء وردية تنتهي بالجبال الشامخة.

أردف "چوليان":

– أعطني يدك. لن آكلك.

أطاعت. ابسطي ذراعك مثلي وهيا بنا نسير على الرمال. يجب أن نتأكد من أن السيارة ستتمكن من المرور.

أطاعت ونفذت ما طلبه. وهكذا تقدما لنحو مائة متر، حتى يعثرا على أرض صلبة تحت الرمال. وحاليا في إمكان السيارة المرور على هذه الآثار دون أي مخاطرة أو الخوف من التعرض للغوص في الرمال.

على الرغم من مؤثرات الليل والتعب والإحباط، كانت "سابين" لا تزال تتمتع ببعض الحماس والحب والسرور لتواجد يدها في يد "جوليان". كان يضمها بين أصابعه الرقيقة القوية. وتقدما هكذا وهما محتفظان بهذه المسافة التي تفصل بينهما. ثم أردف "جوليان":

– وهذا سيكون كافيا. بعد ذلك سيصبح الطريق الممهد متعرجا ووعرا، وسوف يساعدنا ذلك على المرور من الجانب الجيد.

ثم تركها وقام بعمل نصف دائرة. لو كان تم ذلك– فيما مضى– لضحكا حينئذ؛ لأنهما اعتادا السير جنبا إلى جنب وهما متشابكا اليدين في حنان. غير أن "جوليان" كان قد نسي أيام السعادة هذه. لقد تغلبت كبرياؤه على طرق الحقد، وربما أيضا الانتقام. وبخلاف ذلك، لماذا تحمل هذه المشقة هكذا حتى يعثر عليها، خلال فترة إقامتها في "تونس"؟ لقد تعقبها في حين أنه– خلال عامين– لم يسع إلى الحصول على أي تفاهم من جانبها. ربما لو كان قام بذلك..

سمعت من جديد صوت "جوليان" الذي كان منذ لحظات قبل الآن يبدي بعض الإلماعات عن آل "بيمورينس". وبالتأكيد، كان القدر سيعمل بلا شفقة على التفرقة بينهما أكثر، وعلى نحو أسوأ من أشد المشاجرات. وعندما عادا إلى السيارة، جلس كل منهما في مكانه، غير مبال الواحد بالآخر مبالاة تتعارض مع الإحساس بالتواجد بمفردهما على الأرض في هذا المنظر الذي يبدو فيه المرء تائها تماما.

وأثناء ما كانت "سابين" غارقة في ذكريات الساعات الأخيرة التي مازالت صورها تراود خيالها، في حين أنها عاشتها حاليا في الخوف والاندفاع شاهدت أمامها وجه رئيس مجلس المدينة المبتسم عندما وصل

في ساعة متأخرة إلى أصدقائها. لو كان هذا الرجل وجد الوقت الكافي لكي يتحدث معها، لكانت حاليا قد تخلصت من تساؤلاتها، ومن الإلماعات التي استمرت في ملاحقتها على الرغم منها، خاصة منذ أن عثرت على "جوليان".

ثم– في ارتباكها– فكرت "سابين" لحظة في محاولة للنسيان، وأن تتصرف، وكان هذا الزائر الثقيل لم يدق بابها قط ولم يتحدث مطلقا... لكن كيف إذن تبرر ذات يوم لـ"جوليان" رحيلها، هربها..؟

كما أنه قد فات الأوان على هذا التصرف. كانت تحاول أن تقنع نفسها بذلك بعض الشيء طوال هذه الرحلة غير الواعية التي تقودهما إلى أعلى الجبل. إن الرجل الذي تختلس النظر إليه ليس هو الذي أحبته. "جوليان دي كروازو" شخص قادر على إنقاذ– بدافع الإنسانية– شخص يجده في حالة خطيرة، وهي كذلك كانت في خطر.. بل إلى هلاك.. لكن ليس في تصرفه أي دليل على الحب.

وأخيرا وجدا الطريق الممهد (أو المدق). أخذت السيارة ترتفع ببطء نحو قرية "تاميرزا". وكان كلما اقترب منهما الجبل كان يفتح أمامهما منظرا ريفيا فخما على جانبي الطريق بمحاذاة الهاوية.

وإذا بـ"جوليان" يصيح فجأة بشراسة:

– ومع ذلك! فارس "زلاس" فرصة لفتاة مسترجلة، فارسة! لا شك في أنك أحرزت تقدما مذهلا!

قالت "سابين" ببرود:

– أنا لا أجد الفكرة ظريفة.

– أقدم لك ألف اعتذار! حقا إنك معتادة روح الدعابة التي لمديرك الذي لا يوصف!

تغاضت "سابين" عن هذا الهجوم والتفتت نحو زوجها، وقالت بصوت عذب:

– ألست جائعا؟ بالنسبة لي بلى.

أجاب:

– سنكون في "تاميرزا" خلال دقائق.

ألم يخبرني فيما مضى أنه يوجد هنا مكان ممتع خلاب بالقرب من شلال؟

امتلأت عيناها بالدموع عندما تذكرت ذلك. وهكذا، كان هو أيضا يتذكر ما كانت قد أخبرته به عن هذا الطريق، عما احتفظت به عنه من ذكريات على الرغم من صغر سنها، لكنه كان يكلمها عنه كثيرا لكي يذكرها– في فتور– عن وجود مقهى مريح.

"أن تتصل هاتفيا بـ"ليلى شكري" أن تنتهي من لحظات الشك والأمل، أن تواجه الحقيقة، أن تقول لـ"جوليان" كل شيء، أن تكون لديها الشجاعة بأن تكون فاضلة واثقة بنفسها.." هل هي كفيلة بكل ذلك في حين أنها منذ لحظات كان جسدها وكذلك فكرها قد خضعا من جديد إلى الفتنة؟ كانت تتمنى من كل روحها أن تميل برأسها على كتف "جوليان" وأن تطبع على عنقه قبلة حانية..

وأخيرا وصلا إلى قرية، تبدو منازلها وكأنها أحجار إضافية قد بزغت بصورة طبيعية على الجبل.

قال "جوليان":

– ينبغي أن نعثر على الشلال.

– أعتقد أنه في إمكاني أن أقودك. انظر، يجب الاتجاه إليه من هنا. ثم تعمل على ركن السيارة لكي نصل إليه سيرا على الأقدام.

*****

كان هذا الشلال يشق الصخور مثل سلاح فضي، وكان صوت المياه– بعد سكون الصحراء– يبدو سحريا. ثم كان منظر المياه التي تنساب لكي تملأ– في مرح– القنوات المعدة لاستقبالها. سألهما شاب تقدم إليهما لكي يعرض عليهما أشياء من التي يعثر عليها مطمورة في الأرض.

– إنكما وافدان من "توزير"؟

أجابته "سابين" بالعربية:

– نعم. نرغب أيضا في الاتصال هاتفيا.

– إذن سأقودكما إلى والدي...

– وأيضا لتناول وجبة.

قال البائع الشاب، وقد بدا عليه الازدراء:

– فندق "پاپوت" أليس كذلك؟ لن يقدموا إليكما سوى المشروبات. أتعشم أن يكون معكما شيء للأكل.

أردف "جوليان":

– في الحقيقة نعم. لأن في الواقع– سبب مجيئنا إلى هنا هو حاجتنا إلى التليفون.

سألته "سابين":

– ما هي الأخبار في المنطقة؟

أرادت الصحفية بذلك التحقق من أنه لا يوجد من هو على علم بالهجوم الذي حدث بالليل.

– ليس من جديد! كنا في انتظار ثلاث سيارات للسياح الذين لم يمروا. لا شك أنهم توقفوا في أسواق "توزير". إذا وصلوا في ساعة متأخرة إلى هنا، إذن فلقد ضاع هذا اليوم بالنسبة لنا.

إنها مشاهدة محزنة. إن قرية "تاميرزا" بما فيها من سكان قليلين يعيشون على تجارة هذه الأشياء النادرة. ولكي تواسي "سابين" هذا الشاب اختارت بعضا من هذه الأشياء النادرة. قال:

– هيا بنا إلى والدي من أجل التليفون. إنه على الضفة المواجهة من النهر.

وعبرا القنوات على جذوع نخيل ملقاة أعلى الضفاف. فكانت لعبة أفادت بطريقة سحرية– في تبديد التوتر الذي كان يلحق بهما بلا توقف– الواحد ضد الآخر. قدم كل منهما ابتسامة إلى الشيخ الوقور الذي أدخلهما إلى غرفة مظلمة.

– التليفون في آخر الغرفة...

وضع "چوليان" عملة على المائدة التي يعلوها الغبار حيث تتواجد القواقع والأسماك المتحجرة منذ آلاف السنين...

قالت "سابين":

– سأتوجه إلى هناك...

ومرت بدون تكليف أمام الرجال الثلاثة لكي تتصل بـ"تونس". وكانت الساعة الخامسة بعد الظهر. إذن "ليلى" مازالت بالمستشفى. بعد قليل سمع صوت المساعدة الاجتماعية المرح والصافي، يبعث إليها بتحية مرحة:

– يبدو أنه قد حدث هياج شديد في "جفصة". لحسن الحظ، أنكما غير متواجدين هناك.

– حقا.

– نعم. لكن الراديو أعلن أنه لا شيء، والأمور عادت إلى الاستقرار.

وبذلك عملت السلطات بحزم ونجاح على خمد الأخبار وتفادي ما قد يحدث من ردود فعل في المقاطعات الأخرى وفي العاصمة. سألتها "سابين" وهي تخفض صوتها وتنظر إلى "چوليان":

– أنت.. أنت.. هل لديك معلومات من قبل عن مجلس محلي المدينة!

ولحسن الحظ كان الرجال الثلاثة يتبادلون حديثا مهما.

– لحظة واحدة، لقد سجلت كل شيء.. سأحضر أوراقي.. سابدأ: أولا– إنك لست تونسية، وهذا آسف له بعض الشيء، لكن بالنسبة لك فهو أفضل وأسهل لأنك نشأت لدى فرنسيين...

– نعم، حقا.

كان صوت "سابين" مرتجفا، وكل جسمها كذلك، وكأنها اعترتها حمى شديدة.

– والدتك كانت في الثامنة عشرة من العمر، وكان اسمها "سابين دي كليرثو". كانت قد وصلت إلى "جفصة" مع خطيبها على الطريق. وكلاهما قد هرب.

– ووالدي كان...

– "چاك دي بيمورينس".

صاحت "سابين":

– "چاك دي بيمورينس"، لكنه الأخ الأصغر لوالدتي التي احتضنتني! لقد توفي في العام الذي ولدت فيه. كانت تخبرني بأنها حصلت خلال أسابيع قليلة على أعمق حزن وعلى أكبر فرحة.

ثم أضافت "ليلى":

– لقد عرفك والدك، لكن عندما توفيت والدتك، تركك في اليوم التالي لولادتك...

– لا شك في أن ذلك من أجل إبلاغ أخته. كان شابا أليس كذلك؟

وكانت دموع "سابين" تنساب على وجنتيها أثناء ما كانت تتكلم، غير مبالية بوجود "چوليان" ولا الاثنين المجهولين لها، ولا حتى المكان الذي هي متواجدة فيه...

– كان والدك وقتئذ في التاسعة عشرة من عمره.

هكذا أخبرتها "ليلى" وقد بدا الحزن على نبرتها. ثم أضافت في خجل:

– أتعشم يا "سابين" على الرغم من هذا أن نلتقي.

– بالتأكيد يا "ليلى". لقد أبديت كل لطف ومودة نحوي.

كان هذا الوضع بالنسبة لي أشبه بالكابوس. كم كنت خائفة... خائفة إلى حد...

أضافت "ليلى":

– كل الأوراق في "جفصة". من الأفضل أن تفحصيها بنفسك.

لكن "سابين" كانت قد كفت عن سماع "ليلى" حتى "چوليان" الذي كان يناديها وهو يميل عليها. كانت المسكينة قد فقدت الوعي، وسلك التليفون يتدلى... والسماعة تهتز.

الفصل التاسع

كانت "سابين" – عندما أفاقت– ممددة أمام باب المحل الصغير، وكان

"جوليان" يسند رأسها وكتفيها، بينما كان الرجل المسن- متأثرا- يحاول في حنان أبوي أن يجعلها تبتلع كوب ماء بزهر البرتقال.

وكانت أول ابتسامة وجهتها كانت للرجل العجوز المائل عليها. قال البائع الصغير بمرح:

- إنها بخير، هذا بسبب حرارة الطقس، لأنكما لستما معتادين هذا المناخ!

سأل "جوليان" بهدوء:

- ما الذي حدث؟ خير سيئ؟ لقد سقطت فجأة.

أجابت "سابين":

- بالعكس، بل خبر جيد جدا، لكنه قد لا يخصك.

- أولا استريحي قليلا، وتكلمي بعد ذلك بوضوح أكثر. لا.. لا.. لا تنتصبي لأنك بذلك ستتعرضين للخطر.

لكنها نهضت على قدميها. كانت "سابين" تشعر وكأنها ثملة لأن الكابوس الذي كانت قد عانته بشدة قد اختفى. والآن أصبح ذهنها خاليا. كانت ترغب في المشي وأن تبسط ذراعيها، وأن تتحدث وأن تقفز مثل طفلة.

التفتت لكي تتأمل الرجال الثلاثة حيث كانوا دهشين. لقد بدت لها وجوههم التي يبدو عليها الضيق مضحكة جدا، واستسلمت إلى ضحكة عصبية عملت على بعث الألم في نفوسهم.

تقدم "جوليان" نحوها:

- إنك لست على ما يرام. قد يكون من تأثير الشمس.

- لقد اعتدت الشمس. هل غفلت عن أني ولدت هنا. إنه مسقط رأسي!!

- أعلم جيدا، لكن كان هذا منذ سنوات عديدة.

قالت بمرح:

- إنها أمور لا تنسى.. مع ذلك لا أستطيع نسيان ذلك لأنه كان من أهم الأمور... إنك لن تستطيع فهم ذلك، وربما أنك لن تفهم أبدا...

ثم توقف ضحكها فجأة. نظرت إلى "جوليان" بمزيد من الاطمئنان، في هذه الغرفة المظلمة. وها هي قد فهمت أن ما أعلنته "ليلى" لن يغير كثيرا من الوضع.. لقد أدركت أخيرا الحقيقة، ولكنها كانت قد فقدت "جوليان" بين الفترتين، وكان هذا الأخير قد اتجه نحو واحدة غيرها، كان قد أبعدها عن حياته، عن قلبه...

لكن ربما أنها لن تفتقده طويلا، وها هو مكانها بالقرب منه، وقد اقترب منها.. سألها:

- أترغبين في أن نعاود مسيرتنا؟ ربما يفيدك الهواء الرطب.

- إنك يا "جوليان" تكلمني كمن يتحدث إلى مريضة. لقد تلقيت صدمة شديدة حاليا. إنها حقيقة، لكني لست نادمة على شيء.

- إنك محظوظة بطبيعتك هذه! إنك بلا شك لا تندمين على أي شيء في الواقع.

بدلا من أن تجرحها كلمات "جوليان هذه المرة، شعرت بأنها حانية وقد رقت لها. اقتربت منه. نظرت إليه وسألته في وداعة:

- لماذا؟ هل يحدث لك أنت أن تندم عن شيء ما؟

حينئذ، في المحل الصغير الذي جمعتهما فيه المصادفة للمرة الأولى لكي يواجه كل منهما الآخر في حزم وصدق. تمتم صوت "جوليان":

- نعم.. إني نادم.

تمتمت "سابين":

- لكن، طالما تحب امرأة أخرى، وطالما لم تبحث عني قط وطالما أنك تحتقرني..

- لست معتاد الجري وراء ما هو مرفوض بالنسبة لي، ولا أستطيع ألا أتحامل على زوجتي التي خدعتني!

استطردت "سابين، وكانت لاتزال تواجه قشعريرة وهي خائفة، وقد أدركت أنها للمرة الأولى وجدت الفرصة التي تسمح لها بأن تسمع.

- لكني لم أخدعك.

ردا عليها أخرج "جوليان" من محفظته ورقة زرقاء مطوية إلى ست

طبقات...

– أعيدي قراءة ورقتك بنفسك يا عزيزتي.

– أعرفها جيدا. وكم أنبت نفسي عليها.

قال في حزن:

– كان من الأفضل أن تكتبي لي.

– لقد أخبرتك بالآتي: "لقد خدعتك على الرغم مني عن غير قصد".

– هذا ما تتحدث به كل السيدات اللاتي سحرن!

– لكن لست أنا.

ومن جديد بدأت "سابين" تتجول في الغرفة، لكن في هذه المرة، دارت حول "جوليان" وبعد قليل اقترحت:

– ليتنا نخرج من هنا! هيا نعود إلى السيارة.

– كما تشائين. لكن ليس قبل أن نستأذن من أصدقائنا الظرفاء.

– إن كل السيدات مدللات.

هكذا أكد البائع الشاب وأردف:

– إننا هنا لا نشاهد سوى ذلك!

قاما بتحيته وشكر الرجلين ألف مرة. ثم وصلا إلى السيارة. وفي الحال انطلق "جوليان" ربما لكي يتفادى موقفا كان غير واثق به.

واصلا مسيرتهما وقت الغسق ذي الألوان الوردية والموف. وكانت على جانبي الطريق شرفات وحصون من الحجر. وهوات تفصل بينها. تاملا طويلا في صمت كل أنواع الجمال المقدمة لهما، ثم فجأة تجرأت "سابين" على الكلام. سردت بإيجاز زيارة الدكتور "فيرير"، وقرارها بالرحيل، ومرارتها عندما– في الشهور الأولى من انفصالهما– لم يحاول إجراء أي مسعى لكي يراها ثانية..

ولم تمر ربع الساعة على كلامها، وإذا بـ"جوليان" يركن سيارته فجأة على مساحة محفورة في الجبل.

سألته "سابين":

– ما الذي أنت فاعله؟

– أغرس خيمتنا للّيل. إني ثائر جدا. كنت لن أتزوجك أبدا!

شحبت. ها هي تستعيد الأمل– أثناء هذه الدقائق التي تجرأت فيها على سرد الحقيقة– في أن "جوليان" يرغب في محو الحلم الرديء، وأن يستعيد السعادة من حيث كانا قد تركاها. ألحت:

– لكنها ليست غلطتي. كنت أجهل..

– ولماذا لم تختاري أن تحدثيني عن ذلك؟ لماذا اعتقدت أني لن أرغب الزواج بك؟ هذا لا يقبل! إن الحب يتطلب الثقة الكاملة!

– كثيرا ما كنت تتكلم عن أسلافك، وتذكر أيضا أسرتي التي تعرف قصتها.. لو لم أكن من "پيمورينس".

– بالإجماع إنك تشكين في أني اخترتك من أجل أجدادك المحترمين؟

– ليس بالضبط، لكن كان يبدو عليك أنك تمنح هذا الوضع اهتماما أكثر مما ترغب في قبوله الآن...

– لذلك قررت أنه طالما أنك تزوجت برجل كله مزاعم فإنه من الأفضل تركه بلا مناقشة. وفي الواقع مثل هذا الشخص لا يستحق إلا هذا التصرف.. أي هذه المعاملة...

– ومن جانبك، لقد حصرت كل تفكيرك في أني لم أتركك إلا من أجل رجل آخر. ولم تحاول حتى أن تتحقق ذلك.

– عندما يحصل المرء على خطاب– بمنتهى البساطة– رومانسي وماساوي، ففيم يفكر حينئذ؟

– كنت مرتبكة.

– وكنت أنا الشخص الوحيد من لا تستطيعين الإفصاح له بما تسعين إلى البحث عنه عن طريق اتصالات تليفونية مع أي شخص كان...

ها هما الآن تفصلهما الواحد عن الآخر صخرة، ترتفع مثل حيوان هائل نحو قمة الجبل. وكان الليل قد أقبل. وكان هذا المنظر الريفي يبدو لـ"سابين" في الليل أشبه بحالة الغرق التي تحياها.

– إنه واجبي، كنت أرغب في معرفة الحقيقة.

– ألم تفكري في توجيه هذا السؤال إلى محامي الأسرة؟

– المحامي، الموثق؟

– بالتأكيد إن عامة رجال القانون هم الذين يعرفون هذه التفاصيل.

– لكنك– بالنسبة لهذا الموثق– هل رأيته قبل الزواج ولم يخبرك بشيء؟

وكمن يرغب في إظهار الحقيقة تسلق "چوليان" على ظهر الوحش لكي يقول:

– ماذا تعرفين عن ذلك؟

حينئذ سرت دماء آل "پيمورينس" في عروق "سابين". قالت:

– كيف! كنت تعلم الأمر ولم تفصح لي به! خبر بمثل هذه الأهمية! وأراك تتكلم عن الثقة اللازمة للحب.

– كنت لا أرغب في خيانة والديك المسكينين. إذ إنهما كانا متمسكين بإخفاء الأمر عنك... لأنهما يحبانك كثيرا.. كانا قد طلبا من الموثق أن يكشف عن هذا السر إلى الرجل الذي سوف يتزوجك... ربما كانا قد غيرا رأيهما لو كانا قد عاشا أطول من ذلك.

– وبذلك دفعت بي إلى العذاب والآلام طوال هذه السنوات في الشك والبكاء...

وبدأت الفتاة تنتحب مثل طفلة صغيرة، وقد رقت لحالها ووحدتها وجهودها الفاشلة. لم يبد التأثر على "چوليان" بل بالعكس– وكأن الدابة المهددة التي يعتليها تزوده بسخرية شيطانية واصل كلامه:

– في حين أني كنت أسعد إنسان خلال هذه الفترة!

إذ كنت أسبح في المتعة، وحياتي كانت سلسلة من المسرات.

وقد سكنتها الغيرة فجأة استطردت "سابين":

– لأنك وجدت الفرصة لاستخدام ما لك من سحر شهير، ومشترياتك دليل على ذلك.

– مشترياتي؟

– نعم.. الحجر المنحوت الذي تفحصته جيدا.

حينئذ قفز "چوليان" وجرى نحوها وحوطها بذراعيه ضاحكا:

– دفاع رائع. أليس كذلك؟ عندما تواجدنا في هذا المحل للمرة الأولى بعد انفصال كان قد دام طويلا، عزمت على ألا أدع الفرصة تفلت مني عندما رأيت هذا الخاتم الرائع، ولم أشأ أن ألعن المستقبل، بل حدثت نفسي: "ليكن من أجل السعادة" وأخذت هذا الخاتم لك...

– أرادت أن تصدقه، وأن تغرق في السعادة بين ذراعيه، لكنها مكثت صامتة، وقد تجمدت من تأثير الشك فيها، كما أن ما أفصح لها به قد أعياها...

ثم ضمها "چوليان" إليه في قلق، وبدأ يحدثها بوداعة. تمتمت:

– ربما أني من فرط ما عانيته من آلام أكاد لا أصدق ذلك الآن..

حول "چوليان" رأسها نحوه ثم همس:

– هلمي نتبادل النظرات. ابتسمي لي حالا... بسرعة.. أنا لست مغامرا ولا طيارا تحت التمرين، إنها حقيقة، لكن.. أجابت:

– لكنك من هواة جمع القطع الأثرية؛ لذلك سوف أعطيك القطعة الذهبية التي من الـ"چيم" إذا قبلت أن تظل لطيفا، وأن تصغي لي حتى النهاية وأن تصدقني...

– وبخلاف ذلك...؟

– بخلاف ذلك سأصعد إلى قمة الجبل لكيلا أعود منها، وعندما يأتي المساء والظلام يسود المكان، سأحتمي في إحدى المغارات أو أعمل على السقوط في مستنقع، ويكون مصيري حزينا. الميدالية الذهبية في جيب البلوزة في كيسها القماش مثبتة بدبوس.

– هل هو تهديد؟ هل من الواجب علي أن أمنعك من الهرب؟ وهل إذا كنت تحملين مثل هذا الكنز، فهل من صالحي أن أحتفظ بك؟

حوطت "سابين" عنق "چوليان" وقالت:

– أنا لست ضد هذا الحل.

حينئذ في الظلام الذي لم يضئه بعد ولو نجمٌ واحد، عاد إليهما سحر الماضي. واستسلمت "سابين" لقبلاته وملاطفاته كما في أيام السعادة،

وأيام التعاسة، أثناء الحياة الهادئة وعند الانفصال والأحقاد، أيام الشكوك والغيرة.

وعندما عاد "جوليان" نحو "سابين" غطاها في وداعة، تمتمت:

– هذا أشبه بالتروي الفظيع...

– هل غفلت عن أن سلوكك حتى الآن لا يمنحني أي أمل..

– لقد غفلت عن أنك لا تحب الفارسات...

– إذن يوجد خونة في خدماتنا السياسية...

وحكت له "سابين" كيف أنها دافعت عنه عندما أشار الملحق الصحفي للسفارة إلى زواجه.

– لكنه لم يحاول أن يستعيدها! إنه في الحقيقة رجل عديم القلب.

وهكذا أخذا يستعيدان الذكريات الواحدة تلو الأخرى. وها هو أول نجم يلمع أعلى الجبل. انتصبت "سابين" فجأة. ها هو ظل قد خيم على السعادة العائدة:

– هل تعلم أن والدي هربا من "الجزائر" من هذا الطريق؟

– أعلم. إن أسرة والدتك كانت ترفض تزويجها من رجل محكوم عليه.

– محكوم عليه؟

أجابها "جوليان" بصوت خافت:

– هل تعلمين أن "جاك بيمورينس" مات إثر إصابته بسرطان الدم لأنه كان يعلم أنه محكوم عليه..

قالت "سابين" وقد بدا عليها الحزن:

– ومع ذلك، فإن والدتي قد توفيت مثله. ربما لم يكن في مستشفى "جفصة" في هذه الفترة..

أكد "جوليان":

– لقد ماتت بين ذراعي الدكتور "فيريير".

– الدكتور "فيريير"! إنه هو الذي...

ومرة أخرى سردت قصة زيارة الرجل المسن. أردف "جوليان":

– كان من الواجب أن يوضح لك الأمر لأنه على علم بكل شيء.

– أنا لم أخبره عن هويتي.. في النهاية كنت أعتقد أني حتى ذلك الحين..

– أعرف جيدا عناد "آل بيمورينس" وكبرياءهم. اعترفي بأنه كان لابد لي من التذرع بالصبر للاحتفاظ بك. امرأة غير متبصرة على هذا النحو!

– لن أكون غير متبصرة بعد الآن يا "جوليان"! سوف أكون ما ترغب فيه، كم أحبك.. أحبك يا "جوليان".

– على أن تقبلي مني هذه الهدية المتواضعة في هذه الليلة المظلمة؟

ردا على ذلك التصقت به أكثر. أبعدها عنه وهو يهمس:

– إنها مثبتة بدبوس– داخل كيسها– داخل قميصي.

– في هذه الحالة سنقوم بالتبادل حسب البروتوكول مثل تسليم الخطابات المعتمدة لدى السياسيين.

هكذا أردفت "سابين".

وها هو مالك، كل من الحجر المحفور والقطعة الذهبية قد تغير. ثم تلت ذلك قبلة طويلة وملاطفات وتمتمات، حرص على كتمان سرها الظلام المحيط بهما.

أضافت "سابين" وقد رقت:

– أتعتقد، أتعتقد أن والدي– وكانا في ذلك الحين في ريعان شبابهما– استراحا في هذه الجبال؟

– ربما. حقا إنهما شابان. وسوف يظلان شابين إلى الأبد وسيكونان في عمر أبنائنا خلال بضع سنوات...

سألته وقد تأثرت لهذا الاحتمال:

– وهل ستحبني عندما أبلغ عمر جدتي؟

أجاب بلهجة عمل على جعلها مأساوية:

– أخشى ألا تكون لي بعد الآن فرص عديدة للانفصال عن زوجتي. وهو من البديهي تقييد لحريتي من أجل سلام قلبي.

– من أجل تلك السيدات اللاتي تسحرهن في صالونات السفارات.

– أي سيدات؟

– إني أفكر بصفة خاصة في "إيما" الجميلة، الرائعة، التي كنت تضمها إليك بقوة أثناء تلك الليلة التي التقينا فيها في "تونس".

ضحك "جوليان":

– "إيما"؟ لقد عرفتها فتاة صغيرة. إني أحب هذه الصغيرة في الواقع. إنها أخت "فرانسوا دانجلاد"..

– أخت صديق طفولتك؟ هذا الذي أتى كثيرا لتناول العشاء أثناء فترة إقامته في "باريس"؟

– بالضبط. كنا نتسبب لـ"إيما" في الكثير من المتاعب، عندما كانت صغيرة، أما نحن فقد كنا مشاغبين وهي تؤكد أننا ضربناها ذات يوم. لا شك في أنها تبالغ، لكننا– وهي حقيقة– كنا نحكي لها قصصا مرعبة. مسكينة يا "إيما".

– أتعشم جيدا. وكانت السفيرة على حق حين قالت إنكما زوج من الأصدقاء.

– أرجو ألا تكوني قد قررت ما هو عكس ذلك؟

– أنا! كان لابد من أن أكون غيورا– هكذا صاحت "سابين"– لا، غاية ما في الأمر كنت أرغب في قتلكما، وأن أعمل على تقطيعكما إربا إربا عندما كنتما تتبادلان الحديث بصوت منخفض على هذه الأريكة!

– هذا مطمئن يا عزيزتي. وأنا ذاتي كدت– عدة مرات– أن أتشاجر مع هذا الملحق الصحفي الأزلي الذي كان لا يتركك مطلقا. لكن بالتأكيد لم يكن عن غيرة!

وهكذا واصلا الحديث وتبادلا مشاعر المودة طوال الليل. ولم يكن هناك ما هو قادر على أن يشغلهما عن هذه السعادة التي عادت بالمصادفة، والتي كانت مرفوضة طوال شهور عديدة من كل منهما.

أردف "جوليان" بين قبلتين:

– إنك مراسلة خاصة عجيبة!

– مراسلة عجيبة؟ ممن؟ فيم؟ ليس بعد!

وعندما تذكرت "فيصل" وهو ملقى على النقالة ويائس لأنه قد خان، شعرت فجأة بالسخط يعتريها. سألها في مكر:

– قد تكونين قد غفلت عن أن رئيسك نابغة في الإعلام؟

فما كان منها إلا أن سردت له حينئذ الاتصال التليفوني. وكانت كلما تذكرت، كان غضبها يتزايد:

– لقد سألني كيف حال الموتى! يا له من وحش! لا شك في أنه كان يرغب في الحصول على تفاصيل لاذعة عن أولئك الضحايا.

– لكن القراء يعشقون مثل هذه الأخبار.

– إذن، إنهم ليسوا القراء الذين أرجوهم. لأني لا أستطيع القيام بتحقيق صحفي "محزن" عن موقف بمثل هذه الخطورة.

ثم سألها فجأة:

– أتعتقدين أنهم سيأخذون "فيصل"؟

– هل أنت تشير إلى الفارس اللطيف.

أسكتته. لا ينبغي أن يسخر، لأن "فيصل" يشكل جزءا من أولئك الذين فاجأهم الثوار حتى إن كانوا قد رغبوا فيهم، لأنها تجري دائما في الدماء.

– سنعمل على الحصول على أخباره– هكذا اقترح "جوليان"– وإن لم يسلم نفسه، لن يقلق أحد عليه..

أكدت "سابين":

– أعتقد أنه سيسلم نفسه، لأنه كان يشعر بأنه مذنب. وهو ليس بالرجل الذي يحتمل الخزي. سيتقبل التأديب.

بدأت النجوم تتكاثر، لكي تنير سماء أصبحت بلون رمادي فاتح. ثم هبت الرياح وتخللت ممرات الصخور مدوية ومصدرة صوتا أشبه بأنين طويل. اقشعرت حينئذ "سابين" بين ذراعي "جوليان".

– إنك تفكرين في "جفصة". أليس كذلك؟

– إنها مسقط رأسي، ولقد شاهدتها تحت المدافع والصواريخ والحرائق. هكذا قالت في حزن وأردفت:

– كم من ضحايا أبرياء...

أردف "جوليان":

– سنعود معا في الربيع، أعدك بذلك. وعليك بالعمل على أن أقوم بزيارة الواحات، لا تنسي ذلك. أنا لا أعرف حتى الآن لا "توزير" ولا "نيفتا".

– آه يا "جوليان".. كم سيكون رائعا!

ضمها إليه وهو يقول لها:

– هل تشعرين بالبرد. سأحملك حتى السيارة. أمامنا طريق طويل لكي نقطعه والهواء هنا ثلجي..

رفعها بسهولة. وفي الحال وجدت الوسيلة اللازمة للتعلق بعنقه بينما كان هو يسرع الخطى، متفاديا الفخاخ والفجوات والأحجار المتحركة على الأرض.

ثم أعلن وهو يضعها في مكانها بالقرب منه:

– سأعمل على التسخين.

وكانت هذه العناية وهذه الحركة في بساطتها بالنسبة لـ"سابين" تعبيرا لا يقل عن قبلات "جوليان" وكلها تثبت استعادة حياتهما المشتركة. وإذ كان "جوليان" لا يريد لـ"سابين" أن تشعر بالبرد وألا تتعثر أثناء سيرها في الظلام على أرض غير ممهدة، عمل على حملها لأنها أصبحت زوجته.

حينئذ رفعت "سابين" – والدموع تملأ عينيها – الغطاء الذي كان قد ألقاه على كتفيها أثناء ما كان يعمل على تسخين المحرك. قال:

– شكرا يا سيدة "جوليان".

ولما كانا مشتاقين الواحد للآخر بعد أيام الفراق هذه، ألقى كل منهما بنفسه بين ذراعي الآخر، وفي سكون الصحراء قضيا ليلتهما معا.

وعند مطلع الفجر استعادت السيارة الطريق نحو القمم، حاملة آل "كروازو" نحو الحدود.

تمّت بعون الله